اللّه

رحلة الإنسان في البحث عن الخالق

مجموعة كتاب ومفكرين

الكتاب:الله .. رحلة الإنسان في البحث عن الخالق

الكاتب: مجموعة كتاب ومفكرين

الطبعة: ٢٠١٩

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

الله .. رحلة الإنسان في البحث عن الخالق / مجموعة كتاب ومفكرين
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٦٤ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى:٦ – ٨٦١ – ٤٤٦– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع :٢٠٣٣١ / ٢٠١٨

الله
رحلة الإنسان في البحث عن الخالق





مقدمة

طرقت مسألة وجود الله من عدمه منذ القدم من قبل فلاسفة ورجال وعلماء الدين وآخرين. على الصعيد الفلسفي، فمصطلح (وجود الله) يتطرق إلى أصل وجود الله، طبيعته وحدود إدراك البشر له. وأما على الصعيد الديني، فإن رجال وعلماء الدين باختلاف ديانتهم يقولون بأنهم استطاعوا البرهنة على وجود الله بالاعتماد على الغيب فقط، بحسب بعض الديانات أو تيارات دون غيرها داخل الدين الواحد، أو بالغيب والعقل معًا بحسب ديانات أخرى أو تيارات دون غيرها داخل الدين الواحد.

كما يثير النقاش حول وجود الله قضايا فلسفية عديدة، كمشكلة رئيسية هي عدم وجود تعريف متفق عليه لله بين رافضي وجود الله والمعتقدين بوجوده. وبعض التعريفات عامة وغير محددة تتحدث عن قوة كونية، بينما هناك تعريفات أخرى تتطرق إلى إله بمواصفات خاصة، كما أن هناك اختلاف ولكن بمستوى أقل بين المعتقدين بوجود الله، فبينما يقدم اليهود والمسيحيون صفات محددة، فينتقد المسلمين بحسب تعاليم دينهم الإسلام نظرة اليهود والمسيحيين إلى الله. كما أن هناك العديد من الحجج

التي يستدل بها على وجود الله، حيث يمكن تصنيفها إلى: حجج ميتافيزيقية (غيبية)، منطقية، تجريبية، وذاتية، يستدل بها فقط القائلون بوجود الله.

كما أن هناك أيضًا العديد من الحجج العقلية التي يستدل بها من لا يؤمنون بوجود الله، ويستدل بها كذلك قسم كبير من القائلين بوجود الله، وغالبية الحجج العقلية للقائلين بعدم وجود الله تتمحور حول تعارض الصفات الإلهية المطلقة مع بعضها، كتعارض صفة العلم المطلق مع صفة العدل المطلق، والتخيير والتسيير، والقدر ووجود الشيطان وعلم الله المسبق بخلافهما، كما أن هناك حجج عقلية يستدل بها القائلون بوجود الله من مختلف الأديان كالمسيحية واليهودية والإسلام، كما تشكل مسألة وجود الله في الجامعات الغربية موضوعًا حيًا للنقاش في أروقة الفسلفة وفي الحوارات الشعبية. كما يرفض البعض وجود الله ويعتبرونه (مجرد أسطورة احتاجها الناس قديمًا؛ نتيجة لجهلهم بأسباب الظواهر الطبيعية).

إن الجدل حول وجود دليل وحجة قاطعة على وجود الله لهو جدل قائم ومستمر عبر الأزمنة، وقد ساند المفكرين والعباقرة جانبي هذا الجدال. وفي الزمن المعاصر نجد أن الحجة على عدم وجود الله بدأت تأخذ روحًا ثورية، متهمة كل من يجرؤ على الإيمان بوجود الله بأنه شخص واهم وغير منطقي. وقد أكّد كارل ماركس بأن كل من يؤمن بالله لا بد وأنه يعاني خللًا عقليًا بسبب هذا التفكير المريض. كما كتب عالم النفس سيجموند فرويد أن أي شخص يؤمن بوجود إله خالق هو شخص واهم،

يتمسك بهذه المعتقدات نتيجة عامل (تحقيق الأماني)، الذي ينتج عنه ما اعتبره فرويد موقفًا غير مبرر. وقال الفيلسوف فريدريك نيتشه بكل صراحة أن الإيمان هو بمثابة رفض الحقيقة.

إن أصوات هؤلاء الثلاثة القادمة من الماضي (بالإضافة إلى آخرين) يتم ترديدها الآن ببساطة بواسطة جيل جديد من الملحدين، الذين يدعون أن الإيمان بالله لا سند عقلاني له. ولطالما جحد وجود الخالق العظيم (الله) ﷻ بعض الناس الذين دأبوا على وأد عقولهم تحت الثرى، فهم ما بين معاند ومكابر، وما بين جاحد وكافر؛ لذا لا تجد العلماء إلا في معزل عن العناد والمكابرة، عندما ينكشف لهم –عن طريق التجارب التي يقومون بها كل حسب اختصاصه– أن هناك حقيقة يجب الاعتراف بها، وهي وجود عظيم خالق ومدبر لهذا الكون الفسيح، واستحالة أن يكون هذا الخلق من صنع طبيعة عمياء أو مادة صماء، كما نجد أدلة اكتشفها بعض علماء الغرب الذين أبهرتهم الحقائق العلمية التي توصلوا منها إلى توحيد الله جل جلاله، وهناك سببان جعلانا ندرج آراء العلماء في هذا الكتاب، ألاوهما:

الأول: أنها تزيد معرفتنا بآيات الله وضوحًا.

الثاني: أنها تساعد كثيرًا من صرحاء المشككين حتى يسلموا بوجود الله.

وإليكم بعض آراء هؤلاء العلماء:

١. إدوارد لوثركيسيل EDWARD LUTHERKESSFL:

(مختص في علم الحيوان والحشرات، وهو حاصل على شهادة دكتوراه من جامعة كاليفورنيا، وأستاذ علم الحياة ورئيس القسم بجامعة فرنسيسكو، وهو متخصص في دراسة أجنة الحشرات، والحشرات ذوات الجناحين). قال: لو أن جميع المشتغلين بالعلوم نظروا إلى ما تعطيهم العلوم من الأدلة على وجود الخالق، بنفس روح الأمانة والبعد عن التحيز الذي ينظرون به إلى نتائج بحوثهم، ولو أنهم حرروا عقولهم من سلطان التأثر بعواطفهم وانفعالاتهم، فإنهم سوف يسلّمون دون شك بوجود الله، وهذا هو الحل الوحيد الذي يفسّر الحقائق؛ فدراسة العلوم بعقل منفتح سوف تقودنا – بدون شك – إلى إدراك وجود السبب الأول الذي هو الله.

ولقد منّ الخالق على جيلنا، وبارك جهودنا العلمية بكشف كثير من الأمور حول الطبيعة، وصار الواجب على كل إنسان سواء كان من المشتغلين بالعلوم أم من غير المشتغلين بها، أن يستفيد من هذه الكشوف العلمية في تدعيم إيمانه بالله. ثم بعد سرده البراهين من العلوم التجريبية على حدوث المادة يستمر قائلًا: ولا يتسع المقام لسرد أدلة أخرى لبيان الحكمة والتصميم والإبداع في هذا الكون، ولكنني وصلت إلى كثير من هذه الأدلة فيما قمت به من البحوث المحدودة حول أجنة الحشرات وتطورها، وكلما استرسلت في دراستي للطبيعة والكون ازداد اقتناعي وقويّ إيماني بهذه الأدلة؛ فالعمليات والظواهر التي تهتم العلوم بدراستها ليست

إلا مظاهر وآيات بينات على وجود الخالق المبدع لهذا الكون، وليس التطور إلا مرحلة من مراحل عملية الخلق.

وبرغم أن صحة أدلة الماديين قد حجبت كثيرًا من الباحثين الأمناء عن الحقيقة، فإن فكرة التطور الخلقي لا يمكن أن تكون منافية للعقيدة الدينية، بل على النقيض من ذلك نجد من الحماقة والتناقض في الرأي أن يسلّم الإنسان بفكرة التطور، ويرفض أن يسلّم بحقيقة وجود الخالق الذي أوجد هذا التطور. لقد عاش منذ عهد أوجستين العظيم في القرن الرابع حتى اليوم كثيرٌ ممن آمنوا بالله ورفضوا فكرة الخلق بمعنى الصناعة، وقبلوا فكرة الخلق على أساس التطور. والواقع أنه بالنسبة لهؤلاء –وأنا من بينهم– نجد للتطور أهمية من الناحية الدينية؛ فهو يقود العقل الأمين المتجرد من التحيز إلى فكرة وجود الله. وأعود فأقول: إن دراسة العلوم بعقل منفتح تجعل الإنسان يسلّم بضرورة وجود الله والإيمان به.

٢. كارل هايم CARL HIEM:

قال: إن جميع عجائب الصنع ورموزه البديعة تضطرنا إلى الاعتقاد بوجود خالق حكيم وراء المادة.

٣. وولتر أوسكار لندبرج WALTER OSCAR LUNDBERG:

وهو عالم الفسيولوجي والكيمياء الحيوية، وهو حاصل على درجة الدكتوراه من جامعة جونز بكنز، وأستاذ فسيولوجية بجامعة منيسوتا،

وأستاذ الكيمياء الحيوية الزراعية بجامعة منيسوتا. وقال: للعالم المشتغل بالبحوث العلمية ميزة على غيره؛ إذ استطاع أن يستخدم هذه الميزة في إدراك الحقيقة حول وجود الله؛ فالمبادئ الأساسية التي تستند إليها الطريقة العلمية التي تجري بحوثه على مقتضاها، هي ذاتها دليل على وجود الله.

وقد ينجح كثير من رجال العلوم الذين لا يدركون هذه النقطة في أعمالهم كعلماء، ولا ينبغي أن نعتبر هذا النجاح مناقضًا للحقيقة التي أشرنا إليها، فالنجاح في دراسة العلوم يعتمد تمامًا على استخدام أسلوب معين، ولا يتوقف بعد ذلك على مدى تقدير العالم للمبادئ الأساسية التي يقوم عليها هذا الأسلوب.

٤. ألبرت أينشتاين:

إن في هذا الكون المرموز المجهول قدرة عاقلة قادرة يدل عليها نفس الكون بما فيه.

٥. بول كلارنس أبرسولد PAUL CLARENCE AEBERSOLD:

(أستاذ العلوم الطبيعية الحيوية، وهو حاصل على درجة الدكتوراه من جامعة كاليفورنيا، ومدير قسم النظائر والطاقة الذرية في معامل أول ريدج، عضو جمعية الأبحاث النووية والطبيعة النووية). قال: قال الفيلسوف الإنجليزي فرانس بيكون منذ أكثر من ثلاثة قرون: "إن قليلًا من الفلسفة يقرّب الإنسان من الإلحاد، أما التعمق في الفلسفة فيردّه إلى

الدين". ولقد كان بيكون على صواب فيما ذهب إليه، ولسنا إلا في فجر العلوم، ولكن كل إلمامة جديدة، وكل تزايد لنور المعرفة يأتينا ببرهان جديد على أن كوننا هو حقًا صنيعة عقل خلاّق فعّال، كذا يعتمد الإيمان على المعرفة، ويشعر العالم في كل مرحلة جديدة يقطعها أنه يقترب من الله، وقد وجدت في العلم شخصيًا سبع علل كبرى أرسي عليها قواعد إيمانية.

٦. جورج إيرل دافير GEORGE EARL DAVIS:

وهو عالم الطبيعة، وحاصل على درجة الدكتوراه من جامعة منيسوتا، ورئيس قسم البحوث الذرية بالبحرية الأمريكية ببروكلين، وهو مختص في الإشعاع الشمسي والبصريات الهندسية والطبيعية. وقد قال: كلما تقدم ركب العلم وتضاءلت الخرافات القديمة ازداد تقدير الإنسان لمزايا الدين والدراسات الدينية، وليس معنى ذلك أننا ننكر وجود الإلحاد والملحدين بين المشتغلين بدراسة العلوم، إلا أن الاعتقاد الشائع بأن الإلحاد منتشر بين رجال العلوم أكثر من انتشاره بين غيرهم، لا يقوم على صحته دليل، بل إنه يتعارض مع ما لاحظه فعلًا من شيوع الإيمان بين جمهرة المشتغلين بالعلوم. إننا نستطيع أن نتحقق من وجود الله باستخدام العقل والاستنباط مما نتعلمه ونراه، وكلما ارتقى وتقدم تطور المخلوقات كان ذلك أشد دلالة على وجود خالق مدبر وراء هذا الخلق.

لقد خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان وفطره على الإيمان، وجعل فيه وفيما حوله أدلّة وشواهد على وجود الله، وشرع له الإسلام دينًا، ومن

وجوه كمال هذا الدين عدم تعارضه مع الحقائق العلميّة وما توصّل إليه العلماء حتّى يومنا هذا، فلا تعارض بين العلم والدين الإسلامي. وهناك عدد كبير من الأدلة العلمية علي وجود الله عز وجل، فهناك العديد من الدلائل والظواهر الكونية والواقعية التي تدلّ على وجود الله سبحانه وتعالى، ومن أهمّها اختلاف الليل والنهار الناتج عن تأثير دوران الأرض حول نفسها، وهذا الدوران دليل باهر على وجود الله تعالى، كما جاء في القرآن الكريم: "وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ"{فصلت:٣٧}.

خلق الكون والكواكب وحسن تدبيرها، فهذه من أعظم الدلائل على وجود الله تعالى، فالأرض التي نعيش عليها، والمجموعة الكبرى من النجوم التي تنبهر بها الأنظار حين تتأمّلها، وتقف الأنفس حائرة أمامها، ويسيطر عليها الإعجاب وتعتليها الرهبة، فتزداد إيمانًا ويقينًا بعظمة الخالق ودقة خلقه وتدبيره.

هناك أيضًا الخلايا الحيّة التي يتكوّن منها جسم الإنسان، والتي تكون متناهية في الصغر كما جاء في القرآن الكريم: "إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ"{الأنعام: ٩٥}، وكذلك انقسامها، وتكوين الأجنة في الرحم.

أيضًا إحياء الأرض بعد موتها وجفافها، من خلال نزول المطر وإعادة الحياة فيها بظهور النباتات والأشجار والكائنات الحيّة.

وخلق الإنسان، والدقة في تكوينه وفي الأجهزة والأعضاء التي يتكوّن منها الجسم، ودقّات القلب المستمرّة.

ومعجزة القرآن وما فيه من إعجاز، ونظام حياة كامل وشامل.

وعن خلق السماوات ورفعها بغير أعمدة.

وهناك دليل للتسوية، وهو تسوية كلّ شيء والعدل في إتقانه وإحسان خلقه، بحيث يكون مهيئًا لأداء وظائفه بشكل دقيق ومعتدل.

وأيضًا دلالة الفطرة، وهي الشعور الغامر الذي يملأ نفس الإنسان بالإقرار بخالقه، والالتجاء إليه، وشعوره بالقرب منه، ويقينه الكامل بأنّ الله بجانبه في جميع الظروف.

وخلق الأنعام والإبل، وغيرها من الحيوانات التي جعلها الله وسخرها لخدمة الإنسان.

والعلم؛ حيث إنّه هناك تناسب وتوافق كبير بين كلام الله المنّزل في القرآن الكريم وأقوال العلماء، سواء أكان العرب أو الأجانب منهم، حيث إنّهم توصلوا للكثير من الاكتشافات والحقائق المطابقة لكلام الله المنزل

على نبيّه في القرآن الكريم، فكلّما زاد الناس علمًا زادوا تفكرًا ويقينًا بوجود الله.

ومما سبق نجد أن الله موجود ولا حدود له، كما أنه واحد أحد فرد صمد لا زوجة له ولا ولد. ولا أعتقد أن تلك الأرض الرائعة التي نعيش فيها خلقت من تلقاء نفسها بل هي مخلوقة لخدمة الإنسان وراحته، وأيضًا كي يأكل الإنسان من أرجائها من النبات والحيوان، ويشرب من مائها؛ لذا فالله خالق وقادر على كل شيء، ولا يحتاج دليل على وجوده. ولكن جاء دور هذا الكتاب الهام، الذي يضم بين دفتيه شهادات لنخبة من علماء الدين والمفكرين والأدباء من مختلف الأديان والمذاهب؛ كي يعقل الملحدون، وكي يزداد المؤمنون ثقة وإيمانًا بالله. لذا فهذا كتاب كنز مليء بالرقائق الربانية التي تملأ القلب نورًا وثقة بوجود الله، فانتهز وجوده بين يديك، وانهل منه كما تشاء وتعلم وعلم منه الآخرين.

الناشر

الإنسان في رحلة البحث عن الله عز وجل

د.عبد الحليم محمود

من روائع مناجاة ابن عطاء السكندري ما يلي:

"إلهي، كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك؟"

"متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟".

"ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟".

إن مسالة وجود الله[1] لم تكن في يوم من الأيام محل بحث عند ذوي الشعور الديني السليم، ولم ينشأ الجدل في هذه المسألة إلا في العصر

---

(١) حينما يكتب الكاتبون عن مثل هذا الموضوع يبدؤون عادة بإثبات وجود الله سبحانه، ويتخيلون أن هذه المسالة أهم ما في الموضوع. وهذا النهج –فيما نرى– لا يقره دين ولا تقره فطرة، وقد حاولنا أن نستفيض في بيان رأينا الفطرة السليمة لا تقر ذلك في هذا النهج، مبينين أن الدين لا يضع مسالة وجود الله موضع بحث، وأن الفطرة السليمة لا تقر ذلك.

اليوناني؛ فهو العصر الذي جعل منها مشكلة قابلة للأخذ والرد والقبول والرفض.

والواقع أن ظروف العصر اليوناني القديم هي التي جعلت منه مثلًا سيئًا في كل ما يتعلق بالدين والخلق. لقد كان عصرًا خاليًا من الدين الحق، ولم ينعم بالمعرفة الصحيحة عن طريق الوحي، فحاولت طائفة منه أن تصل إلى الوحي عن طريق الكهانة، ومن ذلك كاهنات معبد دلفي المشهورات.

وحاولت طائفة أخرى أن تصل إلى الوحي عن طريق النسك والعبادة والذكر،ومن هؤلاء: فيثاغورث وأتباعه، وأفلاطون والأفلاطونيون، القدماء منهم والمحدثون، لقد حاولوا أن يقتنعوا الوحى اقتناصًا، وأن يكشفوا عن الخير المطلق الحجب، وأن يزيلوا الأقنعة، وأن يصلوا الى الله فيتصلوا بالجمال والجلال والخير المطلق.

بيد أن الطريق الذي سلكوه إنما هو طريق خطأ؛ لأنه لم يؤسس على وحي يرسم طريق الهداية الصحيح، وإنما أسس على نهج عقلي بشري، أو على تقاليد متوارثة.

ومن أجل ذلك لم ينتج الثمرات المرجوة، ثم هو طريق صعب المرتقى؛ لأنه يعارض النزعات الحيوانية في الإنسان، ويحاول السمو بها وإعلاءها. ويريد أن يرقى بالإنسان إلى ما يقرب من المستوى الروحي الملائكي، ولكن بني البشر في الأغلب منهم يخلدون إلى الأرض، ويتبعون

أهوائهم؛ ولذلك كانت قلة قليلة تلك الفئة التي حاولت اتباع هذا التيار في صرامة وإخلاص.

أما الأغلبية العظمى من اليونان فقد اتبعوا التيار الذي يعتمد على العقل البشري اعتمادًا كليًا، وكان زعيمهم الأكبر في ذلك أرسطو، فهو الذي وطد أركان العقل البشري، وأشاد به كأساس للبحث في عالم ما وراء الطبيعة، وفى عالم الفضيلة أو الخير.

وما كان العقل في يوم من الأيام عند حكماء المصريين أو حكماء الهنود أهلًا لأن يكون مصدر المعرفة في عالم الغيب.

وأخذ العقل –عقل أرسطو ومن لف لفه– يجادل ويماري في الحقائق، صغرت أو كبرت، ودقت أو جلت، واضحة كانت كوضوح النهار، أو خفية كأنها غلفت بقطع من الليل المظلم. وتجرأت أقلامهم على تناول عالم الغيب وعالم الخير بالإنكار أو الشك، أو ترجيح الوجود أو ترجيح العدم.

وحاول كل زعيم أن يصور الأمر في هذين الميدانين –ميدان ما وراء الطبيعة وميدان الأخلاق– بحسب مزاجه وأهوائه، وبحسب ما تمليه عليه ثقافته وبيئته، وبحسب ما تمليه عليه طبيعته الجسمانية وجبلته الخلقية.

وانتهى الأمر، وإن حاول المنبتون الرد فحاول المنكرون تعليل الرفض، وزالت قدسية الموضوع، وأصبحنا أمام جو من اللجاج والمماراة لا يليق بجلال الله وعظمته، "وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ".

ولو قيض الله للبيئة اليونانية الخير والهدى، ولو أنعم بنشأة رسول فيهم، لما كان هذا الانحراف الذي انتشر فيهم –منذ أرسطو– انتشار الوباء الخبيث، الذي تغلغل حتى وصل به الأمر –وهو انحراف منحرف– إلى أن أصبح وكأنه الوضع الطبيعي، فساد في كل بيئة، وغزا كل عقل، وكلما تقدم به الزمن ازداد رسوخًا وثباتًا، وازداد انتشارًا، حتى لقد غزا الأديان نفسها التي تأبى أن تقره أو تعترف به.

لقد تغلغل في المسيحية، فوضع رجال المسيحية مسألة وجود الله وقضية الفضيلة موضع البحث، ونزلوا إلى مجال المجادلة والمماراة.

وأخذ هذا الوضع يتخطى القرون حتى جاء الإسلام، فوضع الأمر في نصابه، ووجه الأذهان إلى أن الأمر الأساسي إنما هو مسألة الوحدانية: "أشهد أن لا إله إلا الله". وجه الإسلام الأذهان في عنف وفي قوة إلى التوحيد، لا إلى إثبات الوجود.

لقد وجه الإسلام الأذهان إلى أن الله لا يحتاج في إثباته وفي وجوده إلى دليل. وهو –على العكس– الدليل على غيره، فغيره ثابت به، والعالم ثابت به، والسموات والأرض والعرش والكرسي، كل ذلك موجود بوجوده، ثابت بثباته. والوجود بأكمله محتاج في كل لحظة إليه، فضلًا عن

احتياجه إليه في نشأته الأولى ووجوده الأصلي. "إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا".

إنه يمسكها في كل آن وفي كل لحظة، فإذا ما تخلى عنهما طرفة عين تلاشتا فكانتا هباء، وكانتا عدمًا. وكل ذرة في العالم، وكل خلية من كائناته إنما ثباتها بالله وقيامها به.

مسؤولية عظيمة خطيرة

ومثل الإنسان كمثل أي كائن آخر من حيث وجوده وقيامه بالله، وقد كرمه الله وأعطاه الكثير من المنح والمزايا، ووهبه هذا التمييز والفهم، وسخر له الكثير من العوالم الأخرى، وجعله خليفة في الأرض؛ ومن أجل ذلك كانت مسؤوليته -فيما يتعلق بتصحيح الصلة بينه وبين الله- عظيمة خطيرة.

أما تصحيح هذه الصلة فإن ذروتها العليا ومثلها الأسمى إنما هو ما أمر به -صلوات الله وسلامه عليه- في قوله تعالى: "قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ".

وفرق هائل بين من يتخذ هذه الآية القرآنية شعارًا، ومن يحاول -متجاوزًا قدره- الاستدلال على وجود الله بمخلوق من مخلوقاته. إن الفرق بينهما هو الفرق بين طريق الهدى والصواب، وطريق الجدل والشك، وجاء

الإسلام –كما قلنا– ليضع الأمور في نصابها، وليصحح الأوضاع التي انحرفت.

ومن هذه الأوضاع المعرفة الشرك بالله، والإنسان يدرك بسبب الضعف على وجه العموم، وقد يكون هذا الضعف فقرًا، وقد يكون جهلًا، وقد يكون طمعًا وجشعًا، وقد يكون خوفًا وفزعًا، وقد يكون غير ذلك. ومهما يكن من أمر الشرك فإنه أينما وجد ليس إلا مظهرًا من مظاهر الضعف.

وحاول الإسلام أول ما حاول أن يطهر النفوس من هذا الضعف، وأن يعيدها – بالتوحيد – إلى مجالات العزة والكرامة. "وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ" فكانت دعوته للتوحيد.

رحمة الخالق بعباده

أما ما في القران مما تخيله بعض الناس استدلالًا على وجود الله، واعتقد أن القرآن قصد بذكره الاستدلال على وجود الله، فليس إلا بيانًا لمظاهر قدرة الله وعنايته بالعالم، ومن ذلك مثلًا:

"وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ".

وأن الله سبحانه وتعالى جعل: "الأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا * وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا

النَّهَارَ مَعَاشًا * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا *وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا * لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا".

"تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ * الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ".

وما مثل هذا في تصوير قدرة الله إلا كمثل: "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا * يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا * يَوْمَئِذٍ لا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا * وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا".

إن ذلك وكثير غيره إنما ذكر ليبين عظمة الله وجلاله وقدرته، ويبين رحمته بعباده وعنايته بهم.

وما من شك في أنه يمكن أن يؤخذ من تلك أدلة كثيرة على وجود الله.

وما من شك في أن الأدلة التي تؤخذ من ذلك يمكن أن تصاغ في أسلوب منطقي، في قياس يشتمل على المقدمات والنتائج، ويكون متفقًا مع قواعد المنطق الأرسطي ومبادئه، ولكن ذلك لن يكون قط تصويرًا لهدف من أهداف القرآن، فالقرآن لا يضع قط وجود الموضع شك حتى يحتاج إلى الاستدلال عليه.

من روح القرآن

ومن القصص التي تروى على أنحاء شتى، وبأساليب مختلفة تتفق في الجوهر وتختلف في الرسم، ما يحكى من أن بعض مشاهير العلماء ألف كتابًا ضخما في إثبات وجود الله، فأقام له أصدقاؤه حفلة تكريم من أجل عمله الضخم هذا، ومر بهم بعض الصالحين، فأخذوا يحدثونه عن عبقرية المؤلف، فسأل: ومتى غاب الله حتى يكون في حاجة إلى إثبات؟!

فوجم الجميع ولم يستطع المؤلف الإجابة، وتركهم الرجل الصالح وهو يردد: "قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ".

وقال رجل للنوري (الصوفي المعروف): ما الدليل على وجود الله؟

قال: الله.

قال الرجل: فما العقل؟

قال: العقل عاجز، والعاجز لا يدل إلا على عاجز مثله.

كل ذلك يؤيد ما قاله الشاعر:

مـــن رام بالعقـــل مسترشـــدًا ســـــرحه في حـــيرة يلهـــــو
وشـــاب بالتلبـــيس أســـراره يقـول مـن حيرتـه هـل هـو؟

والنتيجة التي تريد أن نصل إليها هي: أن روح القرآن إذن هي قيادة النفوس إلى التوحيد.

"وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ".

"وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ * قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ"

قصة هزتني من الأعماق

وتأتي مشكلة الملاحدة والوجوديين، المنكرين لوجود الله، ماذا نفعل بإزائهم؟

إن مثل هؤلاء لا وجود لهم في مجتمع سليم طاهر، ويكفي اعتزالهم كمرض خبيث ينفر الإنسان منه، ويكفي عزلهم عن أن يفسدوا الآخرين، تلاميذ كانوا أو طلبة، أو عمالًا أو مزارعين، ولن تمر فترة طويلة عليهم في هذا الوضع حتى يرتدعوا ويعدلوا من اتباع أهوائهم وشهواتهم.

وما الوجودية إلا الهوة، وإنها هوى النفس التي لا تحتمل القيام بالواجب الإجتماعى والديني. والإلحاد ضعف؛ لأنه محاولة للفرار من التكاليف.

ومع كل ما تقدم، فانه لا يتأتى إليّ أن اترك هذا المجال دون أن أذكر قصة سمعتها حديثًا، هزتني من الأعماق أيضًا، ووقعت من نفسي موقعًا من الروعة والجلال لا يمكنني تصوير مداه.

لقد ذكر لي هذه القصة فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ مدثر الحجاز، وكيل جامعة أم درمان ورئيس الطريقة التيجانية بالسودان.

في إحدى القرى النائية المنعزلة من قرى السودان، كان يعيش رجل عابد صالح، وكان يقضي وقته بين المسجد والبيت، لم يكن يفارق القرية يومًا ما، والقرية في انعزالها كأنها –بالنسبة له– العالم كله.

وفى يوم من الأيام، ولظروف معينة، غادر هذا الرجل الصالح القرية بصحبة صديق له، وجدا في السير حتى وصلا إلى الطريق الذي يؤدي إلى المدينة. وما إن وصلا إلى الطريق حتى رأيا –بطريق المصادفة– رجلًا من رجال الجيش الإنجليزي بملابسه العسكرية، مترف المظهر متحليًا بكل ما يمكن أن يتزين به رجل الجيش المترف الأنيق. ولم يكن الشيخ الصالح قد أتاحت له الظروف رؤية مثل هذا المنظر في قريته أو في عالمه المنعزل النائي، الذي ختصره الشيخ –مع صغره– من قرية إلى بيت إلى مسجد.

وتأمل الشيخ رجل الجيش الإنجليزي في دهشة، ثم سأل صديقه مشيرًا إلى هذا الشيء الغريب:

ما هذا؟ فقال له صديقه: هذا كافر.

وعاد الشيخ يسأل في دهشة أشد، وفى استغراب أقوى: أهو كافر بالله؟ فقال صديقه: نعم.

وما إن نطق حديثه بذلك حتى تملك الشيخ شعور بالاشمئزاز، منعه من أن يتلفظ أو ينطق، وغمره إحساس بالغثيان أخذ يقوى ويزداد بسرعة، وإذا بالشيخ يتقيأ اشمئزازًا وغثيانًا وتقززًا من هذا الكافر، هذه هي القصة.

أترى تصويرًا أدق للشعور بالنسبة للملحد من هذا الاشمئزاز؟

أترى صدقًا أصدق من الغثيان من الكافر؟

وأي قلم يبلغ في التعبير ما بلغ هذا الشيخ، وأي أسلوب؟

من صنع الله

إن جميع الأعراف في جميع أرجاء الكون، تتفق في الاشمئزاز ممن ينكر الجميل. وهذا الاشمئزاز يتفاوت بنسبة قيمة الجميل الذي يسدى، وبنسبة درجة النكران التي تقابله، وبنسبة صفاء النفس التي تعلم أو ترى هذا المنكر.

و الإنسان فيّ إيجادًا وخلقًا وتصويرًامن صنع الله، وهو بصرًا وسمعًا وذوقًا وإحساسًا وشعورًا من صنع الله، وهو عقلًا وفكرًا من صنع الله.

وكل نعمة ظاهرة وباطنة –ونعم الله لا تعد– إنما هي من صنع الله.

"وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا"، "وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ".

إن الإنسان مادة ومعنى، وحسًا وعقلًا، شعورًا وفكرًا، وما بالإنسان من نعم يتقلب فيها ليلًا ونهارًا، صباحًا ومساءً، إن كل ذلك من الله.

فإذا ما كفر إنسان بالله، فانه يكون أخس من أن يعاقبه الإنسان بالصفع، وأحقر من أن يبصق الإنسان في وجهه، ولا يستأهل إلا الاشمئزاز درجة التقيؤ.

أما الجزاء في الدين الإسلامي فإنه معروف، يستتاب، فإن لم يتب قتل مرتدًا.

مسؤولية علماء الدين

ومما لا شك فيه أن من الوسائل الكريمة التي تحول دون انتشار هذه القيادات الفاسدة الملحدة في المجتمع ما يرجع إلى علماء الدين؛ فإنهم – وقد هيأ الله لهم أن يتولوا قيادة المجتمع دينيًا– لا شك يكون تأثيرهم جارفًا إذا كانوا مثلًا عليا للفضيلة في أسمى معانيها وأشملها. أي إذا كانوا حقًا

بالمنزلة التي ترضي الله ورسوله، علمًا وخلقًا، وحبًا للخير، وإخلاصًا في كل ما يأتون وما يدعون.

وقد بين الله مقاييس الخير وموازين الفضيلة، وبين طريق الخير وسبل الضلال، وعلماء الدين أعرف بذلك من غيرهم، فمسؤوليتهم أشد، وواجباتهم أصرم، وتأثيرهم في المجتمع –بادية وحاضرة– لا شك كبير. والله يهدينا جميعًا سواء السبيل.

إن الله هو إله الكل

البابا شنودة الثالث

هو إله الكل، خالق الكل، والمعتني بالكل، ورازق الكل، وكل أحد له نصيب فيه، وهو ضابط الكل ومدبرهم. هو إله جميع الكائنات، إله الملائكة والبشر، والحيوان والطير، والطبيعة الجامدة.

مادام الله قد خلق السماوات والأرض، فهو إذن إله السماء وكل ما فيها، وإله الأرض وكل ما فيها، وكل ما تحت الأرض، وما بين السماء والأرض.

هو إله الحقول التي يرويها الماء فتحيا وتنمو، وهو إله الزهور الموجودة في الحقول.

وإله النحل الذي يمتص رحيقًا من الزهور ويحوله شهدًا، وإله الإنسان الذي يأكل هذا الشهد المصنوع من هذا الرحيق.

إنه إله الطيور التي لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن، وهو الذي يقوتها، وهو إله زنابق الحقل التي لا تتعب ولا تغزل، ومع ذلك ولا سليمان في كل مجده كان يلبس كواحدة منها، هو أيضًا إله العصفور ينجيه من فخ الصيادين. وهو أيضًا إله الصيادين الذين نصبوا الفخ للعصفور.

هو إله الأرواح، وإله الأجساد، إله الأحياء الذين علي الأرض، وإله الذين أدركتهم الوفاة وتركوا العالم الحاضر.

انه إله الأقوياء وإله الضعفاء، إله هابيل الذي قتله أخوه، وأيضًا إله ذلك الأخ القاتل.

إنه إله الحكماء، وإله البسطاء، وهو إله سقراط وأفلاطون وأرسطو، وهو إله أي إنسان أمي لا يعرف القراءة والكتابة، وهو يفيض بنعمته على هؤلاء وأولئك.

إنه إله الملائكة الذين يسبحونه في السماء قائلين: قدوس قدوس قدوس. وإله الملائكة الذين يرسلهم إلى الأرض لعمل إنقاذ أو لتبليغ رسالة، أولئك الذين يطيعون أمره للفور وينفذون مشيئته بدون إبطاء، وهو في نفس الوقت إله البشر الذين يكسرون وصاياه أحيانًا، أو يترددون في تنفيذ إحدى الوصايا.

إن الله هو إله الأبرار الذين يعيشون في حياة الفضيلة والقداسة، وفي نفس الوقت هو إله الخطاة الذين يقودهم إلي التوبة.

إنه إله أولئك الشيوعيين الملحدين، الذين علي الرغم من إلحادهم أعطاهم القوة والمعرفة لكي يصعدوا في سفينة الفضاء إلي القمر. وأطال أناته عليهم سبعين سنة حتى رجعوا إلى الإيمان، وهو إله أوغسطينوس الذي عاش بعيدًا عن الإيمان وعن الحياة الطاهرة زمنًا طويلًا، إلى أن أرجعه لحياة

التوبة، وقاده في حياة البر حتى كتب كتاب اعترافاته، وقال فيه: كنت يا رب معي، ولكنني لفرط شقاوتي لم أكن معك، لقد تأخرت كثيرًا في حبك أيها الحب الذي لا حدود له.

إن الله الذي خلق الكل وبنفسيات متنوعة، لم يطلب من الجميع أن يكونوا في نسق واحد من الحياة؛ لذلك فهو إله البتوليين وإله المتزوجين، إله النساك الذين يعيشون في البراري وشقوق الجبال. وأيضًا إله الذين يجاهدون في خدمة المجتمع وفي العمل وسط الناس، إنه إله الذين يعيشون في حياة التأمل والصلاة، وإله الذين يعيشون في حياة الخدمة.

إنه إله القديس أنطونيوس المتوحد في جبل، وإله يوسف الصديق الذي كان يعمل كوزير تموين في مصر، يخزن القمح ويبيعه بحكمة لكي ينقذ الناس من المجاعة، وقد تحدثنا عن هذا الموضوع هنا في موقع الأنبا تكلاهيمانوت في أقسام أخرى. وهو أيضًا إله الرعاة الذين يبذلون كل جهدهم في تفقد الرعية والاهتمام بها، إنه إله الذين يعملون في مجال التعليم وفي نفس الوقت هو إله الذين يتتلمذون علي أيديهم.

الله هو الرب الذي يشعر كل إنسان أيًا كل عمله، وأيًا كان وضعه في المجتمع بأنه تحت رعاية الله وتحت حفظه وتحت اهتمامه.

إن الله هو إله المرضى الذين يطلبون منه الشفاء، وإله الأطباء الذين يعالجونه. الكل يتطلعون إليه، ويضعون حياتهم بين يديه. فهو يعطي

الطبيب الحكمة في معرفة المرض وفي طريقة التعامل معه وعلاجه. وهو يعطي المريض الصبر واحتمال المرض والثقة في الله الشافي.

إن الله يهتم بالكل، يبقى أن الكل يهتمون بأنفسهم، هو يعمل بنعمته في الجميع، ولكن المهم أن يستجيب الجميع لعمل نعمته. والبشر في ذلك ليسوا في اتجاه واحد، فمنهم من يناديه الله فيسمع ويسعى وراءه. ومن يرفض النداء ويرفض السير في طريق الله، وهناك نتذكر أيضًا عبارة القديس أوغسطينس حينما قال لله: كنت معي، ولكني لم أكن معك.

وهناك نسأل عن الرافضين لله: هل الله أيضًا يرفضهم؟ هو إله لهم، ولكنهم لا يريدون أن يكونوا له! ومع ذلك فإن الله الطيب وطويل الروح، الذي لا يشاء موت الخاطئ مثلما أن يرجع ويحيا، هو يطيل أناته على أولئك الرافضين. ربما الذي لا يأتي اليوم، سوف يأتي غدًا. والذي لا يريد أن يتوب، يقدم الله له أسبابًا كثيرة للتوبة، ومؤثرات تعمل فيه؛ لأن الله ليس هو إلهًا للطائعين فقط، وإنما للعصاة أيضًا، حتى يخلصهم من عصيانهم بسعة صدره.

وإن كان إنسان أضعف من أن يحيا في حياة الفضيلة، فهذا إن تخلى عنه الكل، لا يتخلى عنه الله؛ لأن الله هو إله الضعفاء أيضًا، يسندهم حتى يقيمهم. إنه معين من ليس له معين، ورجاء من ليس له رجاء. وهو يشجع صغيري النفوس، وينتشل الواقعين في اليأس، فيغرس فيهم القوة والرجاء

والأمل. وإنه يشفق علي المساكين، ويعصب منكسري القلوب، وينادي للمسبيين بالعتق، وللمأسورين بالإطلاق.

لذلك يا أخي القارئ، لا تفكر أبدًا في وقت سقوطك أن الله قد تخلى عنك، كلا بل هو يهتم بك بالأكثر؛ لأنك محتاج إليه بالأكثر. حتى إن قويت عليك الحروب الروحية أو الحروب التي من سائر البشر، فثق تمامًا أن الله سوف يتدخل برحمته لكي يعينك وينقذك من تعبك. وإن تعرضت إلى خطية متعبة، فقل في ثقة كاملة: أعطني يا رب قوة لأصمد وأنتصر، موقنًا أن الله ليس فقط إله القديسين، إنما هو أيضًا هو إله المحاربين بالخطية يساعدهم في الانتصار عليها.

جريدة الأهرام ـ ١٩ ديسمبر ٢٠١٠

من اللّه؟

د. عبد الوهاب المسيري

"بدلًا من أن أصل إلى الإنسان عن طريق الله، وصلت إلى الله عن طريق الإنسان".

لشدّ ما أخذني سؤالي حول الكلّيات، وأكبر الكلّيات كانت عندي ماهية هذه الحياة وأصلها، بكلمات أكثر تحديدًا: من الإله؟ أو قبل ذاك: ما هي فكرة الإله؟

كانت الأسئلة حينها قاصرةً؛ لذا لم تكن الإجابات كاملة، ولكن في غمرة البحث وجدت سراجين لا يزال نورهما في نفسي إلى الآن، فأضاء كل منهما لي الطريق الذي وقفت في منتصفه حائرًا، كان الأول ذلك الذي بحث عن الإنسان حتى وجد خالقه، وكان الثاني صاحب الطريق الثالث بين السماء والأرض. الراحل: بيغوفيتش.

أخضعت حينها الأمر كلّه لصالح العقل، فلم تخاطب أسئلتي إلا العقل، ثم أيقظني بيغوفيتش، وأفهمني المسيري شيئًا، ونفذ أحد للمرة الأولى إلى تلك التي من أمر ربّي، إلى الروح.

أمتعتني كثيرًا رشاقة المسيري في رحلته الباحثة التي بدأها من الإنسان، ذلك المخلوق المركّب الذي اختزلته المادية فاختزلت السؤال عنه، وضاقت عن فهمه فضاقت عن فهم صانعه، بدأ المسيري من هنا: الإنسان ذو الثنائية المتفاعلة من المادة والروح، فوصل إلى الله الذي لا يؤمن به إلا من آمن بالروح.

ثم جذبتني ثنائيات بيغوفيتش بين داروين ومايكل أنجلو، أو العلم والفن، وبين الثقافة والحضارة، وأخيرًا بين الدراما والطوبيا، وتركيبية الأولى وسطحية الثانية.

كثيرًا ما شغلتني -كما أسلفت- فكرة إثبات الإله، وكيف لهذه الفكرة الغيبية أن تتوافق مع العلم المادي، وكيف يمكن إثبات كذا أو كذا -مما حدّثنا به الدين- عن طريق العلم بشكل جامد وملموس. كان السؤال هنا أحادي النظرة: العلم والمادة وفقط، كان السؤال خاطئًا من الأساس، أخضعت حينها الأمر كلّه لصالح العقل، فلم تخاطب أسئلتي إلا العقل، ثم أيقظني بيغوفيتش، وأفهمني المسيري شيئًا، ونفذ أحد للمرة الأولى إلى تلك التي من أمر ربّي، إلى الروح.

يقول المسيري إنّ الإنسان كائنٌ ثنائي الفطرة، لا يمكن إغفال جانبه الروحي لصالح نزعته المادية، ولا يصحّ أن تطغى روحانيته على وجوده المادي في الحياة. وشأنه في ذلك شأن الحياة التي هي أسمى من الفكر، كما

أعلن بيغوفيتش. وعلى هذا فهو يحتاج لما يعبّر عن فطرته الروحية الجوانية كما تعبّر الطبيعة عن نزعته المادية البرّانية.

لذا قال إنه ينبغي للإنسان من تجاوز يتخطّى به عالمه الأرضي التحتي لما هو سماوي فوقي، بصورة تحقق له الاكتفاء المعنوي، وكذلك الاكتفاء المادي الذي يحققه العلم. هذا الاكتفاء المعنوي لا يتحقّق إلا عن طريق الدين الذي يضع إجابات عن الأسئلة الغيبية التي لا يرقى لها العلم. وإن إنسانًا يرفض هذا لهو إنسان يفقد إنسانيته طواعيةً، ويختزل نفسه في صورة فيزيائية كباقي الجمادات أحادية الصبغة، فكيف تسأل العلم سؤالًا لا يملك أدواته، وتنكر الدين الذي يخبرك من لدن فوقي مفارق محيط، عن الغيب الذي تنشغل بالسؤال عنه؟! العلم يقول لك الطريقة وأنت تسأل عن الغاية، فكيف تسأل من لا يسأل إلا بـ"كيف؟" وتقول له: لماذا؟!

ما وراء الفيزياء/الميتافيزيقيا، بيغوفيتش تحدّث في ذلك، عن الروحانيات التي لا تسبر أغوارها الطبيعة ولا يفهمها العلم كما يفهم الملموسات، عن الفنّ، الثقافة، عن الدراما والتداخل الإنساني. قال إن الإنسان لا يكون إنسانًا إلا من هنا، أي أنّه يحتاج –لكي يكون إنسانًا– أن يتجاوز العلم المادي إلى الفن الروحي ليتّزن الجانبان، أن يتجاوز الحضارة المادية التي هي أثر الإنسان على الأرض إلى الثقافة الروحية التي هي أثر الإله عليه، فتتحقق ذاته المركّبة، وأن يتجاوز تلك الطوبيا الآلية التي تضع البشرية في قوالب مصمتة إلى الدراما الإنسانية، التي تحفظ لكلٍّ تميّزه الإنساني وفرديته، بعيدًا عن ميكانيكا الآلات الصامتة.

هنا توقف عندي كل شيء، توقفت الأسئلة الوجودية الساذجة التي تسأل عن الأسباب الأحادية المادية الصرفة، الأسئلة التي لم تتجاوز ولم تنتبه يومًا أن ثمّة جانبًا في النفس كان يحتاج الاهتمام، ذلك الجانب الذي لولاه لما كنت الإنسان ثنائي القطب الذي وصفه بيغوفيتش، ووصل عن طريقه المسيري إلى الله.

لن أتوغّل كثيرًا في الأمر، ومدى إقناع تلك الفلسفة للبعض من عدمه، فإليكم الرجلين وما كتباه فهو يغني عن التعليق، وقد قالا فلم يتركا، ولكنّي أود الحديث هنا عن نفسي وعن تجربتي مع الإيمان، تجربتي مع الإله، مع الله الذي آمنت به وعرفنيه الإسلام.

الله الذي رأيته يوم أن رأى قلبي، وحجب عنّي حينما كنت جاحدًا يطغى عقله على كل شيء.

تسألني من الله؟ الله يا صديقي هو الله الذي لا اهتداء إلا به، فتراه بغير عين وتقربه دون حراك. إن أفردت –في السؤال عنه– عقلك شقيت لعجزك عن الإحاطة، وإن شاطرته –في السير– قلبك وجدته في كل حين.

أذكر ذلك الرجل الذي حكى عذابه الطويل حين سأله زميل في العناء: هل ما زلت تؤمن بالله؟ فأجابه: "نعم، لأني بكل بساطة لن أستطيع –بمفردي– تحمّل كل ذاك". نعم، هنا الجانب الخفي الذي لا يفسره نيوتن ولا دارون، الجانب الذي يظهر فيه عجزك عن كل شيء، فتبحث عن الله

في نفسك لتكمل السير، ولو بحثت في المادة لأخبرتك أن الحياة في شقاء لا تستحق المثابرة.

أعلمت لم كان الانتحار محرّمًا؟ أعلمت لم قال يعقوب لبنيه: "إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الكَافِرُونَ"، إليكم التاريخ فاذهبوا وانظروا أي الفريقين استمرّت دعوته على كل هذه الصعاب، فريق الإيمان أم فريق الإنكار؟ ثم اسألوا أنفسكم: لم تحمّل أناس كل هذا البلاء الذي لا نفع منه بمفاهيم الدنيا؟ فتجدوا أنّه لم يكن ذاك إلا لحقيقة تجاوزوا الدنيا إليها، فأخضعوها إليهم ولم يخضعوا لها.

تسألني من الله؟ الله يا صديقي هو الله الذي لا اهتداء إلا به، فتراه بغير عين وتقربه دون حراك. إن أفردت –في السؤال عنه– عقلك شقيت لعجزك عن الإحاطة، وإن شاطرته –في السير– قلبك وجدته في كل حين، فتراه في خفيّ اللطف، وفي سكون الأمن بعد الخوف، بآلائه إذا دققت، وتهتدي للسر إذا أحببت، تراه بالذي في صدرك ينبض بين قبض وبسط، وإن أحياه فيك رأيت وما جادلت، فإذا فقهت إلى افتقارك طلبت لقلبك الرضا، كما تطلب لعقلك البلوغ، فكساء عقلك القلب، وأنت أقل من بلوغ الفضاء بساقين عاريتين يا مسكين!

من الله؟! هو الذي أعطاك القيمة حين أخبرك أنه ربك ولم يفنِك في العدم، وكرمك حين حررك من الموجودات وهيأك للواجد. هو السيد الذي

ينتهي إليه السؤدد، فلا ينبغي لغيره أن يكون معه، "لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ".

الله الذي عرفته وعبدته وآمنت به هو الذي أخرجني من ضيق الأرض إلى رحابه، ومن عجز عقلي إلى قدرة قلبي، ومن ضلال السؤال إلى اهتداء الوحي، الله الذي لا يكتمل الطريق إلا إليه، ولا يكون الصبر على الدنيا إلا لكون آخرته خيرًا وأبقى.

منْ الله؟! الله هو الذي قبل كل شيء، فإن لم تره فلست على شيء، وإن طلبته ففيك كل شيء، أنت صنيعته التي صورها على هيئته، فإن لم تبصره في قلبك وروحك، فلن تراه في قول دارون ولا طلاسم الفيزياء.

من الله؟! هو الذي ملك علي روحي وخاطري فامتلأ عقلي وباطني، فهو السلام الذي منه السلام، فتبارك ذو الجلال والإكرام.

الألوهية

د.إبراهيم مدكور

سر الوجود، رمز الجلال والمنظمة، مبعث الخوف والرجاء، ملاذ من لا ملاذ له، لجأ إليها الإنسان الأول؛ طلبًا لقوته وانتصارًا لضعفه، ودفاعًا عن نفسه وحمايةً لماله وأهله، وصورها على غرار صورته أو على نحو شيء مما يحيط به، فرآها في رئيس قبيلته، في عاهله وملكه، أو تلمسها في الشمس مصدر الدفء والحرارة، أو في القمر كاشف الظلمة والهادي ليلًا، أو في المطر منبت الزرع ومطفئ ظمأ الإنسان والحيوان.

وقد يراها في البرق الخاطف أو الرعد القاصف، أو الجبل الشامخ، أو في بعض الطير والحيوان، إله في يسر وفي غير تقيد وحد وعدد، وقد يضع على رأس الآلهة الصغيرة إلهًا أقوى وأكبر، ولا يزال الإنسان يؤله حتى اليوم من يرى فيه خرقًا للمادة، وخروجًا على المألوف.

لم تقف فكرة الألوهية عند هذه الصورة الساذجة السهلة، بل نزهتها الأديان السماوية عن المادية والجسمية عن الزمانية والمكانية، عن الحدوث والفناء، عن التغير والتحول، من الميول والأهواء، عن الفحش والدنس، وردت إلى الإله كل شيء، فهو الواحد الأحد، الأول والآخر، الظاهر والباطن، الحي القيوم، السميع البصير، الحكم العدل، اللطيف

الخبير، وهو المبدئ المعيد، المحيي المميت، الخالق الرازق، الغني المغني، النافع الضار، المعز المذل، الرحمن الرحيم.

الكون منه، خلقه وأبدعه، ورعاه بكرمه وعنايته، لا وجود له بدونه، ولا بقاء له بغير تدبيره.

وحكمته، مالك الملك رب السموات والأرضين، والإنسان خليفته في أرضه، فضله على سائر المخلوقات، ووهبه ما يميز به الخبيث من الطيب، وما يواجه به أعباءه ومسؤولياته.

أرسل إليه الرسل، وكلفه بتكاليف معينة، ووضعه موضع الاختيار، فمن أحسن فلنفسه، ومن أساء فعليها.

الفلاسفة المؤلهون

وقد شغل الفلاسفة والحكماء بتفهم سر الوجود وتوضيح أصل العالم، واستوقفتهم مشكلة الألوهية طويلًا، ففي مصر وبابل عرفت الفلسفة الإلهية قبل أن تعرف الفلسفة الرياضية والطبيعية، والبراهمية والبوذية والكونفوشوسية، معتقدات دينية وقبل أن تكون فلسفات نظرية، وفلاسفة اليونان، الذين أولوا بعالم الحس والواقع، لم يروا مناصًا من أن يبحثوا فيما وراء الطبيعة، والإلهيات باب هام من أبواب بحثهم.

وإله أفلاطون (٣٤٧ ق.م.) أقرب ما يكون إلى مثال الخير أو مثال الجمال، وقد يسميه الصانع، وبرغم أن أرسطو (٣٢٢ ق.م.) كان يرهب

عالم السماء ولا يحب الخوض فيه، لم يستقم له تفسير حركة الأفلاك إلا بالتسليم بمحرك أول يحرك غيره، ولا يتحرك هو، وهو عقل يعقل نفسه، وغاية في الكمال والجمال، ولا تتحرك الكائنات العلوية إلا بعامل الشوق والرغبة في التشبه به.

وإله الرواقيين نار مقدسة هي أساس العالم، وقانون ضروري وعقل كلي منبث في الكون بأسره، فهم من القائلين بوحدة الوجود والأول أو الواحد عند أفلوطين (٢٧٠)، هو مبدأ الكل، وعنه صدر العالم جميعه. وفلسفة القرون الوسطى لدى المسلمين والمسيحيين فلسفة دينية في أساسها تحرص على أن توفق بين العقل والنقل، وتربط الحكم بالشريعة، وهي باختصار فلسفة مؤلهة.

ولم يعد كبار الفلاسفة المحدثين عن هذا كثيرًا، فديكارت (١٦٥٠)، أبو الفلسفة الحديثة وزعيم العقليين في القرن السابع عشر، يرى أن من منحهم الله العقل ملزمون باستخدامه، خاصة في معرفة الله ومعرفة أنفسهم.

ومعرفة الله عنده عماد اليقين ودعامة الحقائق على اختلافها، والإله هو الموجود الحق اللامتناهي. وفكرة الألوهية أجلى الأفكار وأوضحها، ووجودها في الذهن دليل قاطع على وجود حقيقة خارجية هي مصدرها. وليس بلازم أن نبحث عن الله في العالم المحيط بنا، بل يكفي أن نغمض أعيننا ونعطل حواسنا في عقلنا، ثم نفتش عن الأفكار الجلية الواضحة، وسنجد –لا محالة– فكرة الألوهية في مقدمتها. وجد اسبينوزا (١٦٧٧)

في أن يقيم لقاعدته الاستدلال والبرهان، وقمته نور الإيمان وغبطة العرفان، والله عنده جوهر لا نهائي أزلي لا يتغير، بل هو الجوهر الوحيد، والحقيقة المطلقة في جوهر موجود بنفسه وقائم بنفسه، بل لا موجود سواه، والعالم كله أعراض له، وهو عالم علمًا أزليًا أبديًا، وعلمه وإرادته لا يختلفان ولا ينفصلان.

وتعود فلسفته ليبتنز (١٧١٦) كلها إلى الألوهية فكرة، فالمنادات أو الذرات الروحية التي قال بها وعدها أساس العالم، تستلزم في نشأتها وحفظها وتناسقها صانعًا حكيمًا يوجدها ويرعاها، ويسيرها على نظام ثابت. وكان طبيعيًا أن يقول بالعناية والانسجام الأزلي، وأن يردهما إلى الله وحده. وكمال العالم واتساقه وما فيه من خير آية من آيات الله وحكمته، وهو العالم القادر المديد.

ويرد بركلي (١٧٥٣) الحقائق كلها إلى العقل، ويحارب المادية التي يراها سببًا في انتظار الإباحية والخروج على المبادئ الدينية والأخلاقية، ويستمسك بعالم الأرواح؛ لأنه الحقيقة الثابتة التي تصل إليها مباشرة وبدون واسطة، ويعتقد أن ظواهر الكون جميعها ترجع إلى الله، فهو في نظره علة العلل ومصدر الأحداث المختلفة.

وكشف كانط (١٨٠٤) بمذهبه النقدي عن تناقض الفلاسفة السابقين، وهدم كثيرًا من آرائهم، بل امتد نقده إلى وسائل البرهنة على وجود الله، فنقد العقل النظري.

كما نقد العقل العملي، أو بعبارة أخرى نقد مشكلة المعرفة، كما نقد (مشكلة السلوك)، ولكنه أقامهما بعد هذا على بناء أقوى وأسلم. ولم تستقم له أخلاق الواجب إلا بإقامتها على ثلاثة مبادئ هامة، هي حرية الإرادة، وخلود الروح، ووجود الله.

وبدون الحرية لا يكون للتكاليف معنى، ونحن بأدائنا للواجب إنما ننشد السعادة والخير الأسمى، والحياة الدنيا أضيق من أن نحققها بصورة كاملة، وإذن لا بد أن نسلم بحياة أخروية، وتقضي العدالة أخيرًا أن توزع السعادة على النساء حسب استحقاقهن وأدائهن لواجباتهن، وهذا يستلزم قوة عظمى تم توزيع الخير والسعادة بين الناس بالقسطاس المستقيم، وإذا كان (كانط) لم يجد سبيلًا لإعدام الحقائق الدينية عن طريق العقل النظري، فإنه وجده عن طريق العقل العملي، وفي هذا ما يفسر عبارته المشهورة: "اضطررت لإلغاء العلم؛ كي احتفظ بمكان للعقيدة".

الفلسفة الرافضة

ولا نريد بهذا أن نذهب إلى أنه لم يكن بين المفكرين شُكّاك وملحدون في التاريخ قديمه وحديثه، وإنما شئنا فقط أن نشير إلى آراء بعض الفلاسفة المؤلهين، ويبدو أن موجة الشك والإلحاد قويت واشتدت في الفلسفة المعاصرة، ولعل ذلك راجع إلى طغيان المادة، واتساع مجال البحوث العلمية، وكشفها عن خفايا كثيرة، واهتدائها إلى عجائب تكنولوجية باهرة. وربما كان للمذهب النقدي شأن في ذلك، فقد وجه إلى أمور ومشاكل لم يتنبه إليها كانط نفسه، ففي النصف الأول من القرن

الماضي قال أوجست كانط (١٨٥٧) بالفلسفة الوضعية التي ترفض التفسير اللاهوتي والميتافيزيقي للظواهر الكونية، وتدعو إلى الملاحظة والتجربة، وتقدر هذه الظواهر في ضوئها تفسيرًا علميًا، وبعد ذلك قيمة المطاف للفكر الانساني.

ثم جاءت الوضعية المنطقية، وقلت في هذا غلوًا كبيرًا، وعدت الميتافيزيقا كلها خرافة، وأنكرت كثيرًا من القضايا، مثل النفس خالدة، زاعمة أنها ليست من القضايا التحليلية ولا التركيبية، ودعت إلى فلسفة تقوم على العلم وحده.

ويحاول الوجوديون أن يقصروا البحث الفلسفي على الإنسان التي يصنع نفسه بنفسه، ويملأ وجوده على النحو الذي يلائمه وكأنهم لا يرون وجودًا سواه، وبين النزعات المادية تكتفي بأن تشير إلى الماركسية.

وما اعتمدت عليه من مادية تاريخية، تتلخص في أن الوقائع الاقتصادية هي أساس كل الظواهر الإنسانية الحاضرة والماضية، فهي وحدها تحددها وتتحكم فيها، ولا تدع محلًا لمؤثرات أخرى سواها، فكرية كانت أو روحية، وإذن لا اعتبار لقيم دينية أو أخلاقية. وباختصار لم تصادف مشكلة الألوهية في الفكر المعاصر ما صادفته في الفكر القديم، وتكاد تدير الدراسات الميتافيزيقية، المعاصرة حول نظرية المعرفة وحدها.

الشك مرحلة لليقين

ولكن ليس معنى هذا أنه لم تعرف في التاريخ المعاصر فلسفات مؤلهة، لا بل بالعكس ظهرت تلك الفلسفات، وحاولت أن تقيم فكرة الألوهية في دقة على أساس من العلم والواقع، فهيجل (١٨٣١) الذي عولت عليه الماركسية، وأخذت عنه ماديتها الجدلية، إنما تفلسف في الغالب دفاعًا عن المسيحية ورغبة في تكوين فلسفة دينية. وبرغم أخذه بالفينومونولوجيا أو علم الظواهر، ينتهي إلى مثالية مطلقة تعبر عن المطلق في أوسع معانيه.

ووليم جيس (١٩١٠) الذي قال بالبرجماتية، وذهب إلى أن معيار صدق الآراء والأفكار إنما هو في فوائدها وقمة نفعها، يحلل التجارب الدينية تحليلًا دقيقًا، ويقيم العقيدة على أساس سيكولوجي، ويرى المرء في حبات الروحية يتصل بمقام أسمى، فيحس في نفسه بقوة أعظم وثقه أتم، ويشعر بغبطة وسعادة لا حد لهما.

وبرجسون (١٩٤١) الذي يربط الحياة بالزمن والمادة بالروح، يرى أن الله في غنى عن أن يبرهن عليه؛ لأنا نحس به ونستمده من الحياة. وما الحياة إلا اعتقاد في الله، وما معرفته إلا شعور بكل ما تقتضيه الحياة، أدخل جانب التوماسية الجديدة، التي عنيت بها خاصة جامعة لوفان، وتحرص على أن توفق بين فلسفة القديس توماس الأكويني، ومعطيات العلوم الحديثة من مناهج وقوانين.

وفي وسعنا أن نلاحظ أن بين الشُكاك والمفكرين الأحرار المعاصرين من شك بلسانه وفي قلبه بقية إيمان، ومنهم من انتهى به المطاف إلى فلسفة مؤلهًا، وإنما كان الشك مرحلة قلق وحيرة، أعقبها ضرب من اليقين والاطمئنان.

إيمان العوام

والناس في اعتقادهم وتأليههم أصناف، فأغلبهم ينشأ على ما كان عوده أبوه.

وما دانَ الفتى بحجا ولكن .. يعلمُه التدينَ أقربوه

وإيمان العوام سهل مريح، لا تزعزعه ريب، ولا تصاحبه حيرة، هو إيمان راسخ متين، يملؤ القلب وتطمئن إليه النفس، وكيف لا وهو أمنية من لا يجده (اللهم إيمانًا كإيمان العوام). فيه ثقة ورضا، وأمل وتفاؤل بتحمل الضراء في صبر وجلد، ويواجه السراء بالشكر والحمد، يعين على قطع رحلة العمر في يسر، ولا ييأس فيما بعدها من روح الله، هو شيء من لا شيء له، وعون من لا عون له، من حرم منه عز عليه أن يعوضه، ولا حياة لمجتمع بدونه. ومن لم يؤمن بإله موسى آمن بإله المسيح، أو رسم لنفسه إلهًا على نحو ما.

ولا يشك العامة في وجود إلههم، فهم يرونه في كل شيء، ويحسون به دون انقطاع، ولا يقفون عند فهم طبيعته وتوضيح صفاته، فهم يؤمنون

به دون حاجة إلى شيء من ذلك، وجل ما يتصورون أنه الجلال والعظمة، والبأس والقوة، والعدل والحكمة، والعون والنصرة، والخير والنفع.

ويخطئ الخاصة حين يريدون بهم أن يفلسفوا فكرة الألوهية مثلهم، فيحملوهم ما لا طاقة لهم به، ويخوضوا بهم غمارًا ما أغناهم عنها. وتلك كانت غلطة معتزلة بغداد، حين شاؤوا أن يجعلوا من القول بخلق القرآن عقيدة رسمية للدولة. وقد اشتد جدل المسلمين حول البارئ وصفاته في القرن الرابع والخامس الهجرة، الأمر الذي دفع الغزالي (١١١١) إلى أن ينادي بـ(الجام العوام عن علم الكلام) وبـ(الاقتصاد في الاعتقاد).

إيمان الخاصة

وللخاصة أن يفلسفوا فكرة الألوهية كما يشاؤون، وقد فعلوا. يمقتون التقليد، ويأبون إلا أن يحكموا عقولهم في كل شيء، حتى فيما لا يجد العقل سبيلًا إليه. يقيسون الغائب على الشاهد، وهذا قياس مع الفارق. ويحكمون منطق البشرية في عالم الألوهية، فيقعون في أخطاء مفارقات. حاولوا البرهنة على وجود الله، ولعل هذه أيسر مهامهم، فآياته ناطقة، وآثاره باهرة. وتفننوا في ذلك ما وسعهم، فيبرهنوا عليه برهنة طبيعية معتمدين على العلة الفاعلة أو العلة الغائبة، وملاحظين أن كل صنعة لا بد لها من صانع، أو أن الصنعة الدقيقة تستلزم هدفًا وغاية، ولم يخلق العالم عبثًا؛ ولهذا البرهان صور شتى لدى الفلاسفة القدامى والمحدثين، وبرهنوا عليه أيضًا برهنة أنطولوجية مستنبطين وجود الله عن ذاته نفسها، وهو لا شك كامل كمالًا مطلقًا، ولا يتصور من كامل أن يكون معدومًا.

وقد اتجه نحو هذا البرهان ابن سينا (١٠٣٧) بين المسلمين، والقديس أنسلم (١١٠٩) بين المسيحيين، وتوسع فيه (ديكارت) و(ليبتنز) بين المحدثين، وبرهنوا عليه أخيرًا برهنة أخلاقية مستمدة من فكرة الحقوق والواجبات، والتكاليف والمسؤولية، والثواب والعقاب، ولا بد لهذا جميعه من مشرع ومنظم وحاكم عادل. وتعتمد الأخلاق الدينية كلها على هذا الأساس. ومن الغريب أن هذا الأسلوب من البرهنة هو الذي راق (كانط)، المثالي المفرط في مثاليته ومؤسس الذهب النقدي، في حين أنه نقض البراهين الأخرى نقضًا تامًا.

وعرف الفلاسفة ذات البارئ وصفاته، وهذه ناحية تسمو على مناطق البشر، ولا سبيل للعمل الإنساني أن يصورها إلا بشيء من التجريد والتنزيه، أو الشمول والعموم، ويمكن أن ترد محاولاتهم بوجه عام إلى بابين، فجماعة يفصلون السماوي من الأرضي فصلًا تامًا، ويباعدون بين الإلهي والإنساني بعدًا مطلقًا، وهؤلاء هم أنصار التجريد والتنزيه، وممثلوهم كثيرون.

وكان كبار فلاسفة اليونان يقدسون العقل تقديسًا كبيرًا، ويذهبون تبعًا لهذا إلى أن الله معنى مجرد أو مثال، بلغه أفلاطون، أو عقل يعقل نفسه بلغة أرسطو، أو هو الأول الواحد الذي لا يشبهه شيء بلغة أفلوطين. وقد جاراهم العقليون اللاحقون في ذلك، أمثال الفارابي (٩٥٠)، وابن سينا، والقديس توماس الأكويني (١٢٧٤). ودنس اسكوت (١٣٠٨) في القرون الوسطى، وديكارت وليبتنز في التاريخ الحديث.

وقارب آخرون بين الإنساني والإلهي، فشبهوا وجسدوا، وقالوا بشيء من الحسية والمادية، والزمانية والمكانية، وإن اختلفت هذه الأمور لها بالنسبة له عنها فبما عرف لدى الإنسان. وقد يخلطون بين السماوي والأرضي، فيذهبون إلى أن الله كامن في كل شيء ومنبث في العالم بأسره. وقد يردون العالم كله إلى الله، وينتهون إلى صورة من صور وحدة الوجود.

والباحث في صلة الواحد بالتعدد بين أحد أمرين، إما أن يرد كل شيء إلى الله، ولا يبقى للإنسان ولا العالم شيء، وإما أن يحتفظ لهذين بوجود وأثر، وحين ذلك تعترضه صعوبة شمول قدرة الله وعنايته. ولا يزال المرء يبحث وهو مولع بكشف المغيبات، وحين يخيل إليه أنه وقف على سر منها، ازداد حماسة للكشف والبحث.

منهج المتصوفين

ومن الخاصة فريق الروحانيين الذين ينكرون النهج العقلي لما فيه من حنان وحيرة، ويؤثرون عليه منهم الذوق والإلهام والمتصوفة جميعًا مؤلهون، يؤمنون بروح الأرواح وقدس الأقداس، ويسعون وراء النور الأسمى والحقيقة الأزلية.

وعندهم أن العقل يهدم ما بني، ويقول بالشيء وضده. أما القلب فسبيل المناجاة ومقر الحديث النفسي، ومبعث الطمأنينة، ومركز الحب والوجد والإشراق والإلهام. متى صفت صفحته وانجلت غشاوته أصبح أهلًا للإدراك الذوقي والمعرفة الدينية، وإدراك القلب مختلف عن إدراك العقل،

الأول معرفة والثانى علم. والمعرفة في رأيهم أسمى من العلم؛ لأنها حال من أحوال النفس، وتجربة صوفية تتحد فيها الذات المدركة بالشيء المدرك، هي باختصار كشف عن عالم الباطن، في حين أن العلم يغفل عند عالم الظاهر، فهم يؤمنون بالمواطنة قوية النبرة، ويحلونها محل العمل والمنطق.

وهكذا تتم معرفة الله عندهم فهو لا يرى بالحواس؛ لأنه غير مجسم، ولا يدرك بالعقل، لأنهم لا يرقون إليه، وإنما يعرف معرفة ذوقية مباشرة، ولا تقوم على منطق، ولا تعول على استدلال، وإنما في اتصال بالله وفناء فيه أو اتحاد معه، في حضرة وشهود يتصل فيها المحب بالمحبوب الأعظم، والعبد بهذا في غير حاجة إلى البرهنة على وجود الله، وفي غنى عن تحديد ذاته وشرح صفاته، وليس راءٍ كمن سمِعَا!

وفي القول بالاتحاد أو وحدة الشهود ما يؤدي إلى القول بوحدة الوجود، وهذا ما انتهى إليه بعض الصوفية، فيقود الوجدان والذوق إلى مذهب وحدة الوجود، كما قاد إليه العقل والمنطق. والواقع أن هذا المذهب في أساسه وليد فرط إيمان، يدفعه لله عاطفة قوية وشعور فياض، وهو بهذا يلائم الصوفية والروحانيين.

وفكرة الألوهية عند الصوفية تعتمد على الذوق والتجربة الشخصية، وتقوم على أساس من الشعور والوجدان، في مرة تنبعث من الباطن، ويصعب نقلها إلى الخارج. يحس الصوفي بجمال الله وجلاله إحساسًا صادقًا، ويعز عليه أن يصور إحساسه للآخرين، وكل ما يملك هو

أن يدعوهم أن يرجعوا إلى أنفسهم؛ لكي يحسوا بما أحس ويشعروا بما شعر، ومن العقليين من انتهى به المطاف إلى طرح براهينه العقلية وأفكار أدلته المنطقية، وقنع بأن يرجع إلى سريرته ويركن إلى ما اطمأنت إليه نفسه.

سر الوجود

هذا هو موقف العامة والخاصة من مشكلة الألوهية، أو إن شئت موقف العوام والعقليين والروحانيين، ولكلٍ لغته مهما زاد تعليمه وثقافته، ولا سبيل لأن يفهم غيرها. فهناك روحانيون بفطرتهم، وآخرون عقليون باستعدادهم، وإلى جانب هؤلاء وهؤلاء الجماهير التي لها من العقل والروح نصيب، ولكن لا طاقة لها على أن تتعمق في هذا أو ذاك، وتأخذ الأمور ببساطة، وتقنع منها بما يلائم هباتها ويحل مشاكلها. وهؤلاء جميعًا في أغلبهم مؤلهون.

وعلى هذا ستبقى الألوهية ما بقي الإنسان، ستبقى لأنها ضرورة من ضرورات المجتمع، وحاجة ماسة من حاجات الفرد، ولن يضيرها في شيء أن يكون هناك كفار وملحدون، فقد صادفتهم في مراحل التاريخ المختلفة، ولم يعوقوا سيرها، ولم يضعفوا نفوذها. حقًا إن في الكشوف العلمية ما يبهر العقل وما يزلزل العقيدة، ولكن هل يزعم العلم أنه كشف كل شيء؟ قطعًا لا، ومتى ادعى ذلك انقطع سيره وتوقف عمله، ومادام في الكون خفايا، فهذا سر الوجود وأساس فكرة الألوهية.

مملكة السماء عند الفراعنة

د. ˙بيب ميخائيل

كان المصري القديم يخشى الموت عادة، ويخشى قوى الشر المتصلة به، ولكنه كان يدرك أنه وسيلة لاتخاذ صورة جديدة للحياة، ولرغبته في الحفاظ على الصلة بين الـ(با) والـ(كا) في عالم ما وراء القبر، فقد وجد أن من الضروري أن يظل الجسد سليمًا بقدر الإمكان، ومن ثم كان التحنيط الذي يستهدف حفظ الجسم من البلى، وكانت عملية التحنيط تقلد ما تم بالنسبة لـ(أوزيريس)، الذي يفترض أن (أنوبيس) جمع أعضاءه بمعونة إيزيس ونفتيس.

وقد عاد (أوزيريس) للحياة ثم أسس مملكة الأبدية في العالم الآخر. وكان الناس يستطيعون أن ينعموا –كما نعم (أوزيريس)– بالحياة بعد الموت، وذلك بأن تمارس لهم نفس طقوس التحنيط. ولسنا نعرف على وجه التحقيق إن كان الجسد يقطع في هذه العملية عمدًا (تقليدًا لتقطيع أوصال أوزيريس) أو لا. وإن كان الكشف عما يبدو أنه أجساد مقطعة نسبيًا داخل لفائف كتانية سليمة في دشاشة يوحي بذلك. ولكن يبدو أن ثورة ما قامت ضد هذا الإجراء أدت إلى القضاء عليه.

ومن أهم طقوس الدفن طقس فتح الفم، الذي كان مقصورًا في أول الأمر على الملوك ثم شاع بين الأفراد، وهدفه إعادة الميت إلى قواه العادية؛ لتمكينه أحيانًا من ترديد كلمات صحيحة وجعله حيًا من جديد، وهكذا فإنه طقس بعث وخلود. وكان القبر هو الأداة التي يمكن التغلب بها على تحلل شخصية المرء نتيجة للموت، فهو مكان تغير الشكل (ساخ)، وهي كلمة تطلق على الشعائر الجنازية، وتعني تحويل الميت إلى (أخ) أو (روح تغير شكلها)، ويضم القبر الهيئة العضوية كمومياء أو تماثيل. ويضم مجازًا مؤونة من أجل الـ(كا)، ويمنح الفرد أساسًا لكيانه بعد الموت، ذلك الكيان الذي يمتد وراء حدود القبر.

من أجل هذا حرص المصريون منذ عصور ما قبل التاريخ على دفن موتاهم، وكانوا يؤمنون بأن روح الميت وجسده الذي يدفن مقرها الأرض أو العالم السفلي، وكانت أرواح الموتى تهيم في الصحراء، ولكن مقرها في العالم السفلي ومعها هنا متطلبات الجسد، وقد استحدثت بعد ذلك. في عصور ما قبل التاريخ كذلك. فكرة جديدة عن المستقبل برزت وتطورت، هي فكرة أن الميت حين يموت تترك روحه الجسد في القبر وتطير إلى السماء كطائر، وهناك تلتقي ببديله، أي أنه كان يظن أن المرء –شأنه في هذا شأن الآلهة– يستطيع أن يكون في السماء وعلى الأرض في نفس الوقت، وإن كان ذلك في صور مختلفة.

والبديل –كبديل– كانت له روح وجسد وإن اختلفت طبيعته فهو أثيري مثل جسد الآلهة، وحين تصل (با) المرء إلى السماء تصبح (الروح

الخارجية) للـ(كا) التي له، ومعنى هذا أن المرء في السماء يتكون من جسد أثيري له روحه، بالإضافة إلى (الروح الخارجية) التي كانت في الـ(با) الخاصة بجسده حين كان يعيش على الأرض. والـ(كا) السماوية أو الـ(كا) كـ(أخو)، وكذلك الـ(با) الأرضية، كانا إلهين في السماء، وكانت الروح الـ(با) أو الروح الخارجية هي وحدها التي تستطيع أن تزور القبر متخذة هيئة الطائر أو الطائر برأس آدمي.

وعن طريق الطقوس الجنازية يصبح الموتى (أخو)، ويعرفون بـ(الأرواح المتغيرة الهيئة الكاملة العدة). وبينما يظهر الميت على الأرض كـ(با)، نجده منفصلًا بوصفه (أخو) عن البشرية تمامًا، ومن ثم كان يرى ليلًا على هيئة نجم في السماء.

وليست الأفكار عن الـ(با) والـ(أخ) متعارضة أو متضادة، ذلك أن الميت يمكن أن يظهر على الارض كـ(با)، ولكنه في الوقت نفسه (أخ) في صورته المميزة للكيان. والفكرة عن الميت كـ(أخ) تبدو أكثر الأفكار انعزالًا وغموضًا، ولكنها هي التي تمنحه أعظم رونق؛ لأنها تتضمنه في النظام الفلكي الدائم.

وقد نتساءل كيف أن المصريين وهم يرون –كقاعدة– أن التغير المتكرر المنتظم هو التغير العام التقليدي، استطاعوا أن يهتموا بموت الإنسان، وهو على أية حال حدث فردي؟

إن الإيمان بالخلود في القبر وظهور ال(با)، لا يجيب عن هذا التساؤل، ولكن الاعتقاد في ال(أخ) يدل على أن التغير بسبب الموت ينقل المرء من مجال عدم الأهمية إلى مجال الأهمية، ومن صورة الوجود المفردة السريعة الزوال، إلى صورة دائمة غير متغيرة.

البديل والروح والجسد

يشير تقديم القرابين والتقدمات في المقابر منذ عصور ما قبل الأسرات، إلى أن القوم اعتقدوا في الوجود بعد الموت، وهو وجود لا للجسد، بل لعنصر آخر يستطيع أن يكون منفصلًا عن الجسد لفترة طويلة بعد الموت. وهذا العنصر غير مرئي عادة (وإن كان من الممكن أن يرى أحيانًا) وهو يخلد عن طريق الطقوس (مثل طقس فتح الفم)، ويمكنه مع بديله أن يظلا خالدين عن طريق التقدمات.

وهذا العنصر ليس خالدًا في ذاته، وإن كان من الممكن أن يجعل كذلك، ويمكن أن يوفر الحياة الأبدية للمرء –لل(با)– عناية النسل من الأحياء، عن طريق التقدمات التي تستطيع ال(با) عن طريقها أن تصبح (قوية) وقادرة، أي (حية)، والروح هي التي تعاد للحياة، ويحتفظ بها خالدة، أما الجسد (خت) فلا يبعث بل يظل في القبر.

وتتصل ال(با)، التي تحيا، بالبديل (كا أو كا ك(أخ)) للميت ك(روح خارجية)، والتقدمات التي تقدم عند القبر (وتمثل على الجدران) تجعل كلًّا

من الـ(با)، والـ(كا) (الروح والبديل) يعيشان إلى الأبد. وهذا هو المعنى الوحيد الذى نستطيع أن نقوله عن (البعث).

أما الجسد في القبر فيظل محفوظًا على طريق الأضاحي، كما يستطيع بديله في السماء أن يمكن من الحياة، ومن ثم فلا بعث للجسد المادي، وإن كان الجسد الروحي (أخو) يصعد إلى السماء، حيث يبدو إنه يتطابق مع الـ(كا)، ولا يستطيع اتحاد الـ(با) والـ(كا) أن يعيدا التجسد بالمعنى الحديث: أن الـ(كا)، بديل يحتل جسدًا روحيًا وليس جسدًا ماديًا.

أفكار موغلة في القدم

مما تجدر ملاحظته أن هدف الرحلة (مسكن الموتى) قلما يوصف، والفقرات القليلة التي تتحدث عما وراء عالمنا الذي نعيش فيه، والتي تشير إلى حقول الشعير ذي السنابل، التي يبلغ طول الواحدة منها خمس أذرع نعتبر ثانوية كما سنرى.

والأوصاف المقابلة هي لعالم سفلي مظلم مرعب، ونحن لا نجد في النصوص المصرية وصفًا للحقول وجزيرة المنعمين. ويتفق تحديد العالم الآخر والعقيدة التي نلتقي بها نحت مختلف صور الحياة بعد الموت لم تكن هناك أرض للموتى حتى توصف، بل إن الموتى كانوا يعيشون في مدار فلكي للشمس والنجوم، كانوا يعيشون في السماء كما يعيشون وراء الأفق في العالم السفلي، كانوا ينزلون في الغرب ويقومون في الشرق، وقد حصلوا في

نفس الوقت على بعض الصلة بقبورهم، وعن طريقها بالحياة على الأرض، ولكن سعادتهم الدائمة كانت وراء الأرض والقبر.

وحين كان من الضروري الإشارة إلى الإقليم الذي يسكن به الموتى، ويراد تجنب كلمات (السماء) و(العالم السفلي)، كان الاصطلاح الذي يستخدم هو (حقل القصب) أو (حقل الأسل). وهناك اصطلاح بديل أحيانًا هو (حقل التقدمات)، وهي تسمية قد تبدو غريبة لمكان الحياة الدائمة. ولكنها تشير إلى أن المرء يجب أن يكون (معدًا إعدادًا تامًا حتى يخلد دوامًا)، وهي تبين كذلك أن الأفكار المتصلة بالقبر لم تكن تتعارض مع معتقد الخلود.

ومما تجدر ملاحظته أن تعبير (حقل الأسل) له صلة بأفكار بدائية موغلة في القدم، فهو يتجاهل الحياة الزراعية التي تميز العصور التاريخية في مصر، ويضغط على المنظر البدائي للوادي قبل أن تهذبه جهود الإنسان، وفي حالته قبل ممارسة الزراعة، ومن ثم فإن (حقل الأسل) والتفكير فيه كأرض للموتى يرجع إلى أقدم طبقات العقائد المصرية.

ولم يكن اعتقاد المرء في الخدود بعد الموت ليمحو من خاطره الخوف من الموت، الذي نجد له صدى في العوائق التي تعترض الطريق إلى النعيم، ومن بينها: البحيرة الدوارة، بحيرة الألف طائر المائي، بحيرة ابن آوى، ثم هناك كذلك بحيرة الأسل وبحيرة الفجر.

و(حقل الأسل) جزء واضح من هذا المنظر، يعبره المرء من أحد جانبيه في الطريق إلى الماء أو ينزل من (الحقل) بعد عبوره، ومن هنا يبدو الحقل كمكان يمر فيه المرء على الطريق الصحيح (طريق المدار الفلكي)، فحقل الأسل هو التكملة الخيالية للعائق المائي الذي يجب على الميت أن يتخطاه، وهو في بعض النصوص مكان التطهير الذي يصعد منه إلى السماء، بل هو في بعضها السماء نفسها.

وعلى أية حال فليس لحقل الأسل مكان محدد، بل إنه يلتمس كأنما هو المكان الذي يرتبط فيه الموتى بأى جزء من المدار الشمسي أو النجمي، وإذا نحن تابعنا الفكرة القائلة بأن الميت يلحق بالشمس، فإن العائق المائي يصبح بحيرة الفجر التي تخرج منها الشمس (كما سنرى فيما بعد)، ولكن الماء الذي تشرق منه الشمس هو كذلك (نون) المحيط البدائي، الذي انبثقت منه الشمس يوم الخليقة، والذي أحاط بالأرض ودعمها منذ هذه المرحلة، تلك الأرض التي برزت من وسط.

وهذه الفكرة منطقية مادامت للمحيط البدائي قوة الأحياء، وهكذا فإن الماء الذي يعبر هو المحيط البدائي، وأما الهدف فهو جزيرة اللهب حيث خرجت الشمس عند خلق العالم. وإذا كان على المرء أن يعبر الأمواه البدائية في الموت –وهي تحت الأرض كذلك– فإنه ليس هناك من تناقض إذا افترض أن ينزل المرء إلى مقبرته؛ لكي يعبر هذه المياه في العالم السفلي؛ ذلك لأن الشمس بدورها تنزل في الغسق وتمر في العالم السفلي

قبل الصعود في الفجر، وبنزول الإنسان إلى القبر يتصل بالشمس في سراها الليلي.

وفي الموكب الجنازي يتم عبور النيل كذلك، وهو أمر يستهدف دعم جهد الميت، ولئن كان هناك ماء يعبر فلا بد من نوتي يساعد على العبور، ولئن كانت هناك بوابة فلابد من بواب يصر على سماع كل المرور أو تقاضي الأجر، ومن ثم كان على المرء أن يسلح نفسه بالتعاويذ والأوراد والرقى؛ ليتخطى هذه المخاطر والصعاب والعقبات جميعًا.

فلسفة الحشر والنشور

كانت هناك فكرتان عامتان عن عالم ما وراء القبر تطورتا في مصر القديمة، أما أقدمها فعن العالم السفلي حيث يحكم أوزيريس، وأما الأخرى فمملكة سماوية حيث (رع) (إله الشمس) سيدًا وملكًا، وهي كالأولى أرض بلا عودة.

وتمثل المملكة السارية في رأي كهنة الشمس أملًا في مجد دائم في حضرة بهاء إله الشمس (رع)، ولم يكن يدخلها في أول الأمر سوى الملوك، ولكنها أصبحت بعد ذلك مشاعًا للجميع. أما عالم المستقبل (الأوزيري) فعالم سفلي في مظهره. وقد أدرك المفكرون الدينيون في (أون) (مقر عبادة الشمس) قوة تأثير اللاهوت الأوزيري، وحاولوا أن ينسجوه في طريقتهم الشمسية كما يتضح في متون الأهرام.

ومكان المستقبل (الأوزيري) في السماء كذلك، في الأفق، أو في الإقليم السفلي من السماء، ولقد أقام (رع) (أوزيريس) من الموت وأطلق عليه لقب (سيد السماء) كما يزعم لاهويتو (أون)، وإن لم يستطيعوا أن ينتزعوا منه حقوقه القديمة، وألقابه فهو (سيد الذات – العالم السفلي) والنجوم التي لا تفنى هي (أتباع أوزيريس).

وقد أزرت (نسبة إلى أوزيريس) الحواريس الأربعة الشرقية، كما أزرت الطقوس الجنازية هي متون الأهرام، وأصبح (الناظر للوراء) (بواب أوزيريس)، وبالمثل كان له السلم، وقارب التعدية، وطوف القصب.. إلخ. ولكن بينما كانت (الفكرة الأوزيرية) للغرب تقحم نفسها في متون الأهرام بدئ في تخذيلها، وظلت التعاليم الشمسية عن العالم الآخر تسيطر على لاهوت (أون).

ونحن نلتقي بفلسفة الحشر والنشور الأوزيرية في أربعة كتب متأخرة عن متون الأهرام، وكلها نال منها النقل على مر العصور، وهي كتب: الطريقان، الموتى، البوابات، أم دوات.

وقد جرى العرف على تقسيم الأوراد الجنازية إلى ثلاث مجموعات كبيرة، وذلك بالنسبة لعهد كل منها وأسلوب كتابته، وهي (متون الاهرام) وظهرت في مقابر ملوك الأسرة الخامسة، آخر ملك، و(الأسرة السادسة)، و(نصوص التوابيت)، وكتبت في عهد الدولة الوسطى على الجدران الداخلية لكثير من التوابيت، و(كتاب الموتى)، وهو عبارة عن أوراد

كانت تكتب على قرطاس من البردي، يوضع إلى جانب الميت من الدولة الحديثة.

ويطلق على العالم الأوزيري اسم (دات) أو (دوات). وهناك كلمات أخرى تعبر عن هذا العالم مثل (إيجرت) مكان الصمت و(قبحو) مكان الماء البارد، و(ايمنت) الغرب، و(حرت نثر) ملكة الموتى، و(زسرت) الأرض المقدسة، و(تا عنخ) أرض الحياة.

السحر والرقى والطقوس

و(سيد الدات) هو (أوزيريس)، ووظيفته سلبية كما سنرى فيما بعد، إذ إنه يجلس على عرشه حيث يتقدم إليه الميت، يقوده له ابنه (حورس) أو يقوده إله الموتى القديم (أنوبيس)، و(الدوات) صورة أخرى من مصر، وهناك (دوات عليا) و(دوات سفلى)، بها نهر يجري يبحر فوقه قارب الشمس. وبالدوات سبع صالات (وفي نص آخر ٢١)، وكذلك ١٠-١٥ صرحًا (وفي نص آخر ١٤٩ أو ١٥٠)، وبه ١٤ أو ١٥ قسمًا، وهناك نص في كتاب البوابات يشير إلى اثنتي عشرة بوابة. وفى كتاب (أم دوات) تسمى أجزاء الدوات (ساعات)، منها ١٢ تمثل الوقت الذي تستغرق رحلة الى الشمس في (الدوات).

وهناك تعريف عام للدوات (أو جزء منه كما يظهر في النصف الأول من الدولة الوسطى) هو (راستاو)، الذي يشير بصفة عامة إلى مدخل العالم السفلي، وتبين إحدى خرائط العالم الثاني أن من يدخل مملكة

الموتى ممن يكونون في هذا المكان المقدس (راستاو بالقرب من الجيزة) فإنه يجد أمامه (الطريقين).

ولم تكن (الفكرة الأوزيرية) لعالم المستقبل مهمة في متون التوابيت أهمية الفكرة الشمسية، ولكن التفكير حول الموتى شغل الأذهان، فلم يمضِ قليل حتى استطاعت (القضية الأوزيرية) أن تجعل من نفسها أمرًا محسوسًا فأصبح (الغرب) مهمًا ك(السماء)، وإن حرص دعاة اللاهوت الشمسي على نشر فكرة الرعب عن مملكة الموتى الرهيبة، وأخذت العقيدتان تتداخلان، فطبقًا للعقيدة الأوزيرية كان على الميت أن يراعي جمع أشلائه في العالم السفلي، وطبقًا للعقيدة الشمسية كان عليه أن يراعي أمر زينته اليومية كإله الشمس.

وقد استغلت العقيدتان في السحر والأوردة والرقى والصلوات والأناشيد والطقوس، واستطاعت العقيدة الأوزيرية بنهاية الدولة الوسطى أن تتغلغل في أعماق الشعب وتستحوذ على خياله، وارتبطت الأخلاقيات بـ(الكائن الطيب) (أوزيريس)، وأزرت في نهاية الأمر فلسفة الحشر والنشور تمامًا. ومنذ بداية الأسرة الرابعة والعشرين على الأكثر حتى نهاية الفكر الديني المصري، ظلت العقيدة الأوزيرية عن المستقبل كما هي دون أن يعتورها تغيير.

يعيش على الطعام السماوي

ولقد كان المصريون يعتقدون في حساب كل الأرواح بعد الموت، وطبقا للعقيدة الأوزيرية كانت كل روح تتقدم نحو (أوزيريس) كقاضٍ، ومن ورائه (إيزيس) و(نفتيس)، ويقودها إلى حضرته (حوريس) أو (أوزيريس)، ومن حوله اثنان وأربعون من القضاة، وتعد اثنتان وأربعون جريمة أو إثمًا تنكرها الروح. ويلي ذلك وزن القلب مقابل ريشة (رمز الحق)، ويمثل (تحوت) دور الكاتب، فإذا أدينت الروح افترسها وحش معد لهذا الغرض، وإذا برئت سمح لها أن تتجول في حقول المباركين المطوبين. وأما طبقًا للعقيدة الشمسية فإن قاضي الموتى هو (رع)، تساعده ابنته (ماعة) ربة الحق ورمزها ريشة كذلك.

وتبين دراسة العقيدتين أنه منذ عهد الدولة القديمة كانت هناك حالتان متميزتان تؤديان إلى التطويب، هما الطهارة والعفة، والطهارة جسدية مادية، وأما العفة فمظهر من الاستقامة والعدالة، وكما يستحم (رع) في المحيط السماوي حين يشرق في الصباح، فإن الملك المتوفي كان يفعل ذلك أيضًا، وكانت للتطهر دلالة روحية كذلك. أما تقييم العفة فيتم عن طريق الاختبار الخلقي، وهو المحاكمة التي عرفت منذ عهد الدولة الوسطى على الأقل، وقد سرى الاعتقاد بعد ذلك بأن كل روح يجب أن تمر بمحنة الاختبار الخلقي، مما أدى إلى زيادة الإيمان بالسحر والتعاويذ كوسيلة لتنظيم المحاكمة والتغلب على بعض العقبات.

وليس للروح التي تمر بتجربة المحاكمة أن تخشى موتًا ثانيًا، إذ إنها تعلن ك(ماع قرد)، (صادق الصوت) أو (مبرر)، ويصبح صاحبها تحت حماية الآلهة، وكان يظن أن كيانه مادي تمامًا فهو يرتبط بأسرته، وينعم بما يقدمونه من طعام، ويعمل من أجله خدمه، ويتلقى العديد من المزايا مقابل المنح التي قدمها للمعابد خلال حياته. ومع ذلك فإنه كان يظن أن هناك شيئًا روحيًا حول هذه الأشياء؛ لأنه حتى الجعة لم تكن قابلة للفناء، وكان المرء كالآلهة يعيش على الطعام السماوي.

من خائن الإله العظيم

ولكن كيف نشأت كل من الفكرتين الشمسية والأوزيرية؟ وكيف ارتبطتا وامتزجتا ببعضهما؟ أما الفكرة الشمسية فربما جاءت نتيجة الملاحظة ثم التفكير؛ ذلك أن المصري كان يرى الشمس تغيب كل مساء في الغرب، لتبدو من جديد في الشرق في اليوم التالي، ومن ثم فكر في أنها ربما جابت خلال الليل عالمًا سلفيًا، أى سماء ثالثة في أسفل الأرض.

وكان من اليسير التفكير في أن هذا العالم لا يدخله الأحياء، ومن ثم فهو عالم الموتى، يذهب إليه الموتى من الغرب، ويعيشون في عالم مظلم لا يتألق فيه نور، إلا إذا مضت من فوقهم الشمس في رحلتها ليلًا. وأدى هذا إلى تسمية عالم الموتى باسم (الغرب)، وتسمية الموتى ب(أهل الغرب).

والوجود في هذا العالم محزن على أية حال، ومن هنا نشأ تفكير جديد، هل يتساوى الأخيار والأشرار هناك؟ إنه لابد أن يكون هناك وجود أفضل للأرواح الممتازة، والتي ينبغي أن تعيش وفقًا لأمر الإلهة.

وكان المصريون يستهدفون النجوم الكبرى كالشعرى اليمانية، والجبار ونجمة الصباح، فتخيلوها آلهة تركت الأرض، كما فعلت الشمس. وأما النجوم الصغيرة من حولها فهي الأرواح السعيدة، وجدت طريقها إلى السماء، حيث ظلت في سناء دائم إلى جانب الآلهة.

وطبقا للعقيدة الشعبية كان الممجدون يتخذون مقرًا ثابتًا على الجانب الشرقي للسماء في الجزء الشمالي بين ما لا يفنى من النجوم.

وزاد الشعب في صورة مقر الأبرار، فتصوره مجموعة من الجزر تحيط بها المياه المختلفة، وتسمى إحداها (حقل الأطعمة)، وأزكى من شهرة (حقل الأسل) الذي ظلوا يعدونه مقر الممجدين.

وتصور المصريون هاتين الجنتين على غرار بلادهم، إذ يغمرهما الفيضان وتزدهر المزروعات بما يوفر للموتى طعامهم، وفي شرق السماء شجرة الجميز حيث تجلس الآلهة، وهي شجرة الحياة التي يعيشون عليها، ويتغذى الأبرار من ثمارها. وهناك كذلك آلهة السماء تزود الميت بطعام أطهر وأكثر براءة، تعطف الواحدة منهن على البار، وتدني له ثديها لترضعه، وهو يذهب إلى والدتيه الرحيمتين (نوت والحبة التي تحمي الشمس) ذواتي الشعر الطويل والثدى الناهد، واللتين تجلسان على جبل

سحسح، فتمدان ثدييهما إلى فمه ولا تفطمانه أبدًا، وله كذلك أن "يطعم من أطعمة أخرى، فيتلقى نصيبه مما في خزائن الإله العظيم، ويلبس من الثياب ما لا يفنى، وينام كل يوم في صحة وعافية، وله من الخبز والجعة ما يبقى أبدًا، ولا يضطر إلى أن يأكل الجوع ويشرب العطش، ولا يخشى أن يرغم يومًا على أن يأكل العذرة".

ويتطلب الوصول إلى الجزر اجتياز المياه التي تحيط بها، فمنهم من يطير على جناحي (تحوت)، ومنهم من يتجه إلى الشمس لتعبر به، ولكن أغلبهم كانوا يعتمدون على نوتي هو (الناظر إلى وراء)، وهو (نوتي حقل الأسل)، لا ينقل غير "الرجل القويم الذي لا قارب له، والذي وجد مقسطًا أمام السماء والأرض وأمام الجزيرة نفسها".

وتتطلب الآلهة من العابر إليها طهارة الجسد قبل أي شيء آخر، فالآلهة التي تشرف على المياه الجائشة في (الفنتيني)، تطهره بأربعة قدور من الماء أو "هو يغتسل مع (رع) في بحيرة يارو، ثم يجفف حوريس جسده ويجفف تحوت قدميه".

طابع شعبي واضح

وكان إلى جانب هذه الخيالات تصور آخر عن (أوزيريس)، الإله الذي مات فغدا ملكًا للموتى ومثالًا لهم يحتذونه، والذي أصبح مصيره المؤثر –من موت وبعث– عزيزًا على قلوب المصريين، وكان المصريون يرون في (أوزيريس) مثالًا للميت منهم. فالرجل الذي يدفن في الأرض

يلقى نفس مصير الإله، وكما أن (أوزيريس) حي فسيحيا هو كذلك. وكما أن (أوزيريس) لم يمت فإنه لا يموت هو أيضًا، إنه سيبعث في هيئة (أوزيريس) ثانٍ إلى حياة جديدة سعيدة، ولقد كان الأنقياء من عباد (أوزيريس) يتوقعون هذا المصير، فهم "لا يذهبون أمواتًا بل أحياء" وهم "يبعثون لحياة حقيقية جديدة، يحرزون فيها أجسادهم وأرواحهم، فلهم قلوبهم، ولهم أرواحهم، ولهم أفواههم، ولهم أرجلهم، ولهم أذرعهم ولهم سائر أعضائهم".

ويرجع اعتناق العقيدة الأوزيرية –كما سلفت الإشارة من قبل– إلى عهد بالغ القدم، فالأوراد التي يرد بها ذكر (أوزيريس) توجد بكثرة في أقدم ما حفظ لنا من أدب جنازي، ألا وهو (متون الأهرام) الخاصة بالملوك، ولكن الفكرة انتقلت إلى الشعب في (متون التوابيت)، وفي و(كتاب الموتى)، وأصبحت الحياة السماوية توهب للأفراد بعد أن كانت مقصورة على الملوك، على أنه أعجب من هذا أن يصبح كل ميت إلهًا في العالم السفلي، وهكذا نشأ خليط قلما يجدي ترسم خطوطه. يضاف إلى هذا ما تمتاز به نصوص (كتاب الموتى) من طابع، فمعظمها صيغ سحرية؛ ذلك أنه لكي يتم للميت أمر من الأمور كان يتلو وردًا يتخذ فيه شخصية أي إله؛ اعتقادًا منه أنه بهذه الوسيلة يكتسب صفاته.

ولكتاب الموتى طابع شعبي واضح، وكان يجب أن تتحد الروح مع الجسد من جديد، وأن تجد باب المقبرة مفتوحًا حتى "تستطيع أن تخرج نهارًا" في أي شكل يروق لها، وكانت هذه الأمنية (وهي إقامة الميت بعض

الوقت على الأرض عندما تضيء الشمس؛ هربًا من الظلمة التي يخلقها غيابها عن عالم الموتى) هي الأمنية التي تلعب دورًا كبيرًا في (كتاب الموتى) حتى أطلق عليه كله فيما بعد كتاب الخروج نهارًا.

على أن أهم من هذا كله فكرة ضرورة تبرير الميت، وهي فكرة حديثة نسبيًا، لقد قاضى من قبل الإله (ست) أخاه (أوزيريس) المتوفي، واجتمعت الآلهة في هليوبوليس لمحاكمته، "حققت كلامه" (أي وجدته بريئًا) فبرأته. ويبدو من (كتاب الموتى)، أن هذه المحكمة اجتمعت كذلك في أبو صير وبوتو وأبيدوس وهيراقليوبوليس، وفي معبد سكورني منف وفى أماكن أخرى مقدسة، وكان (تحوت) هو الذي برأه. وقد أدى هذا التصور إلى أنه أصبح يرجى أن يبرر (تحوت) الميت كذلك بصفته (أوزيريس) جديدًا، وكما أن (أوزيريس) وجد محقًا فقد وجب أن يثبت كذلك أن الميت في مملكة الموتى طاهر مبرأ من كل أثم، وفي هذا مظهر خلقي وجد سبيله في أسطورة أوزيريس إلى العقائد المصرية، ومنذ ذلك الوقت لم يعد الرجل القوي هو الذي ينتصر في الموت بل الرجل المحق البريء من كل ذنب.

من هنا كانت مرافعة الميت أمام المحكمة التي يرأسها (أوزيريس) ومن حوله القضاة الاثنان والأربعون (الذين يمثلون بدورهم عدد أقسام مصر)، تلك المرافعة السلبية والإيجابية التي ينفي فيها الميت عن نفسه ارتكاب الآثام أولًا، ولكن لما كان هذا غير كافٍ لتبريره، فإن كان عليه أن يقدم حسابًا عما قدم من أعمال طيبة (المرافعة الإيجابية)، والموتى الذين يخفقون في هذا الامتحان لا يدخلون مملكة (أوزيريس)، وفي هذا الكفاية من البؤس

والشقاء؛ لأنهم يظلون في مقابرهم يضنيهم الجوع والعطش، ولا يشاهدون الشمس نهارًا أو ليلًا.

وكما أن المذنب يلقى في محاكم الدنيا عقوبة خاصة، فإن مثل ذلك يتم بالنسبة للمذنبين، حيث يحمل القضاة سيوفًا لمعاقبة المذنب، كما تدل أسماؤهم على عقوبات مروعة، والحيوان الواقف أمام (أوزيريس) "يلتهم الميت" ويمزقه، وهو كائن مخيف، بصفة خاصة يدعى (باباي).

وأما المبرر فليس هناك شيء كثير واضح عن مصيره، وإن كان له مقره أمام الإله العظيم، وهو يخرج إلى حقل (يارو)، ويعطى الفطائر والخبز، ويقيم وقتًا في حقل الطعام.. إلخ.

وهناك طريقان إلى مملكة الموتى يؤديان إلى مملكة الأبرار، أحدهما عن طريق الماء، والآخر عن طريق الأرض، وهما متعرجان ولكن الاتصال بينها غير ممكن؛ إذ إن بينهما بحرًا من نار، وهناك طرق جانبية لا ينبغي سلوكها؛ لأنها تؤدي إلى النار أو إلى طرق ملتوية. وقبل الدخول في أحد الطريقين يمضي الميت من باب من النار، وتعترض الميت بوابات إلى جانبها حراس أشرار في أيديهم نصال تعلوها الثعابين.

وقد تطور الأدب الجنازي بطريقة خاصة إلى كتابين حافلين، ألحق فيهما طريق الميت بالرحلة التي تقوم بها الشمس في ساعات الليل الاثنتي عشرة عبر العالم السفلي، الذي ينقسم وفقًا لما جاء في كتاب العالم السفلي –ويعرف عادة باسم (أم دوات)– إلى اثني عشر قسمًا، مما يتفق وعدد

ساعات الليل، وتسمى هذه الأقسام بالحقول أو المغاور، وهى آهلة بالآلهة وأرواح الموتى.

ولقد حفظ لنا كتاب آخر هو كتاب (البوابات)، أن بين الساعات وبعضها حصون عالية وصروح عليها حراس وثعابين تنفث النار، والكتاب أكثر رعاية للتصورات الشائعة من ال(أم دوات)، وأقل منه احتفالًا بالأغراض السحرية.

لا ماء ولا خبز ولا حب

لقد كان الموت شيئًا رهيبًا لدى قدماء المصريين، حتى الأتقياء منهم كانوا يفزعون منه ويرهبونه كما يخشون رسول (أوزيريس)؛ ذلك لأن ل(أوزيريس) رسلًا ذوي نظرات شرسة، يطلبون الناس ولا يخشون أحدًا من الآلهة، وليس هناك من يعلم متى يأتي الرسول.

وفي صراحة تامة يذكر أحد شعراء الدولة الوسطى أن الدفن لا يجلب سوى الأسى والدموع، إن سائر المقابر الجميلة متهدم بلا شك، ومن دفنوا فيها ليسوا أحسن حالًا من الفقراء، ومن الذين يموتون مجهدين على رصيف الميناء.

وفي أحد نصوص (كتاب الموتى) –في حديث بين (أتوم) و(أوزيريس)– أن مملكة (أوزيريس) أرض لا ماء فيها ولا هواء، ولا خبز ولا جعة، ولا حب. حقًا لقد أشار (أتوم) إلى أن (أوزيريس) يستعيض بنعم

الدنيا هذه راحة البال والتمجيد، ولكن من المحقق أن الأمر لم يكن كذلك مع البشر دائمًا، فلم يكن سائر الموتى يفرحون حقًا بالراحة التي يرجوها لهم أخلافهم الأحياء؛ لأن أفكار الكثيرين منهم ظلت تتعلق بالدنيا والحياة فيها، كما ظل البعض يحتفظون بسخط دائم يودون إرضاءه، على حين كان آخرون يتبرمون بحياة من خلفوهم من الأحياء.

الفلاسفة لم ينكروا وجود الله

الأنبا غريغوريوس

سؤال: هل أنكر الفلاسفة القول بوجود الله؟

الجواب: هذه فكرة خطأ سادت على عقول كثيرين من الناس، إن الفلاسفة قد أنكروا القول بوجود الله، والحق أن الأغلبية الساحقة من الفلاسفة العباقرة، قد اعترفوا بوجود الله، وهم في ذلك انقسموا إلى فريقين: فريق مضى يثبت وجود الله إثباتًا عقليًا، وأخذ يأتي بالدليل يثبت وجود إله خالق يسيطر على الجميع، وفريق آخر خانه الدليل المنطقي والبرهان العقلي، فنادى بقصور العقل وعجزه عن الوصول إلى ذلك، ولكنه مع ذلك كان يؤمن إيمانًا يقينيًا بوجود الله.

ومن الحق أن يقال إن الله حقيقة تعلو عن المدارك والأفهام؛ لأن العقل محدود والله غير محدود، ولن يستطيع المحدود أن يحيط بغير المحدود، كما يقول بونافنتورا، حتى إن بعض اللغويين قد ذهب إلى أن كلمة الله في اللغة العربية، اشتقت من "أله يأله" بمعنى تحير، أي أن الناس تحيروا في إدراك جوهر الله، ومن هنا كانت كلمة (الله).

وإذن فنحن لا نستطيع أن نفهم طبيعة الله، ولا نستطيع مطلقًا أن نمتد إلى فهم جوهر الله وحقيقته؛ لأنه كما يقول الرسول: "لا يعرف أمور

الإنسان إلا روح الإنسان الساكن فيه"، هكذا أيضًا أمور الله لا يعرفها إلاّ روح الله؛ لأنه يفحص كل شيء حتى أعماق الله.

ولكن إذا كان صدقًا أننا لا نستطيع أن ندرك ماهية الله وجوهره الحقيقي، لكن يمكننا مع ذلك أن نستدل على المؤثر بالأثر الذي يتركه، وعلى الصانع بمصنوعاته. وإذا تتبعنا تاريخ الفلسفة في العصور القديمة، ثم العصور الوسطى والعصور الحديثة، وجدنا أن هذا البرهان الشهير، هو أعمق البراهين جميعًا، وهو أحراها بالدرس والفحص، ولن يمكنني –في عجالة قصيرة كهذه– أن أتتبع جميع البراهين والأدلة الأخرى التي اعتمد عليها الفلاسفة في إثبات وجود الله، فهي كثيرة جدًا، وقد اختلفت بحسب كل فيلسوف. كما أن من البراهين ما هو معقد وطويل، ويعتمد على معلومات فلسفية سابقة، تستدعي مجالًا غير هذا المجال.

وإذن فنحن سنقتصر في الواقع على برهان واحد، عرفه الفلاسفة تقريبًا بالإجماع، وإن كانوا قد اختلفوا في طريقة عرضه، وهذا البرهان يقول –كما قلنا– إن الأثر يدل على المؤثر، أو إن المعلول يدل على العلة، أو المخلوق يدل على الخالق، أو المصنوع يدل على الصانع.

والفلاسفة في هذا السبيل فريقان، فريق ذهب إلى المخلوق العاقل وهو الإنسان، وفريق ذهب فوق ذلك إلى المخلوقات عمومًا ونعني بها الطبيعة.

ومن بين الذين مضوا إلى النفس واستعمقوها، ديكارت أبو الفلسفة الحديثة، الذي هدم جميع أقوال السابقين. ثم عاد يقول إن النفس الإنسانية تعرف أن هناك كمالًا مطلقًا، حتى إن الإنسان يشعر أنه كائن ناقص، فهذا الشعور بالنقص يستدعي أن يكون هناك كمال مطلق؛ لأنه كيف يعرف المرء أنه ناقص إذا لم يكن قد عرف قبل ذلك الكمال. وإذن فالإنسان يمتلك في نفسه فكرة الكمال، لكن هذا الكمال لن يمكن أن يصدر عن إنسان ناقص، فمن الواجب إذن أن نرد هذا الكمال إلى ذات لها الكمالات، وهذه الذات هي الله.

وقد ذهب بونافنتورا (أحد الفلاسفة المسيحيين في القرن الثالث عشر) إلى أن فكرة وجود الله فطرية في النفس الإنسانية، أي أنها مطبوعة في النفس الإنسانية وموجودة في أعماقها، وإلى هذا الرأي ذهب كثيرون جدًا من فلاسفة العصور الوسطى.

أما القديس أوغسطينوس في القرن الخامس المسيحي، وهو أكبر فلاسفة المسيحية، فقال: إن هناك حقائق معروفة عند النفس الإنسانية، وهذه الحقائق ثابتة غير متغيرة، لا تخضع للزمان أو المكان، أي لا تتغير بتغير الزمان أو اختلاف المكان، وهذه الحقائق سماها بالحقائق الأزلية الأبدية. والمثال على ذلك القوانين الرياضية والقوانين المنطقية، كقولنا إن القولين المتناقضين لا يمكن أن يكونا صحيحين في آن واحد، ومن جهة واحدة، فإن كان أحدهما صادقًا، فلا بد أن يكون الآخر كاذبًا.

هذه الحقائق الأزلية لا بد أن نبحث عن مصدرها، فهل مصدرها النفس الإنسانية؟ كلا؛ لأن النفس الإنسانية فانية زائلة. إذن لا بد أن يكون مصدرها أزليًا أبديًا، وهذا المصدر لن يكون إلا الكائن الأزلي الأبدي، وهو الله.

وهكذا ذهب ديكارت وبونافنتورا والقديس أوغسطينوس إلى أن التأمل في النفس الإنسانية، يقودنا إلى ضرورة الاعتقاد بوجود الله. وهذا هو الشطر الأول.

أما الفريق الثاني من الفلاسفة، فقد مضى يتأمل الطبيعة، وهؤلاء كثيرون يعيى العد عن حصرهم، ومن بينهم أفلاطون (فيلسوف اليونان العظيم في القرن الرابع قبل الميلاد) رأى في الطبيعة جمالًا، وأدرك أن في العالم نظامًا كاملًا، فأنشأ يقول: "إن العالم آية فنية في غاية الجمال، ولا يمكن أن يكون النظام البادئ فيما بين الأشياء بالإجمال وفيما بين أجزاء كل منها بالتفصيل، نتيجة لعلل اتفاقية، ولكن صنع عقل كامل توخى الخير، ورتب كل شيء عن قصد"، وقد رأى أفلاطون أنه مقتنع بوجود الله، أو كما سماه هو الصانع، حتى إنه عدها جريمة كبرى يجب أن يحاكم عليها المرء أمام القضاء إذا أنكر وجود الله؛ لأن هذا الإنكار فيه إخلال بالنظام الاجتماعي، لما يؤدي إليه من فساد السيرة.

وفى هذا السبيل عينه سلك القديس أوغسطينوس، وقد قال: "سألت الأرض فأجابت لست أنا هو، سألت البحر وأعماقه، وما فيه من

زواحف وأحياء، فأجابتنى كلها: لست أنا الله! سألت النسيم العليل والعاصفة العاتية، والهواء وما فيه من عناصر، فقيل لى: أنت مخطئ، وأنا لست الله. سألت السماء والشمس والقمر والكواكب، فأجابتنى كلها: لست أنا مطلبك. ناجيت جميع الخلائق التي تحيط بمنافذ حواسي الجسدية، فقالت لي: إن الله ليس هاهنا. إذن نبئينى أين هو! فصرخت كلها بصوت واحد: هو الذي صنعنا".

وما أروع هذا القول، وما أقرب الشبه بينه وبين ما سطره الوحي، "فاسأل البهائم فتعلمك، وطيور السماء فتخبرك، أو كلم الأرض فتعلمك، ويحدثك سمك البحر، من لا يعلم من كل هؤلاء أن يد الرب صنعت هذا" (أيوب ١٢:٧ – ٩).

وهكذا رأى توما الأكويني في القرن الثالث عشر أن الكون كله منظم، لا في جزئياته بل وفيه كله ككل، ولكن كنظام يقتضي منظمًا أحدثه، فإذن لا بد من منظم وهو الله، وكل علة منظمة تقتضي عقلًا؛ لأن كل نظام يقوم على العقل، فكل علة منظمة لا بد أن تكون عاقلة، وفي النهاية لا بد من القول بوجود علة عاقلة منظمة للكون، وهذه العلة هي الله.

والحق أن ما أصدق قول النبي: "قال الجاهل في قلبه ليس إله" نعم جاهل وغبي مهما كان عالمًا، ذلك الذي يرى الكواكب في دوراتها المحددة، وسيرها المنتظم وثباتها في الهواء، دون حبال تربطها أو أعمدة تسندها، ثم

بعد ذلك ينكر خالقها العظيم. تأملوا عالم النبات في خضرته وجماله، وتعدد ثماره التي لا حصر لها، ونموه العجيب الذي لا يجرؤ امرؤ على القول أنه يفهم سر هذا النمو، كيف أن الأرض مع أنها واحدة، ومنها يمتص النبات غذاءه، كيف نرى شجرة للحنظل وشجرة للتفاح مع أن الأرض واحدة؟ أي عقل في الوجود يتصور أن كل ذلك النظام صدفة؟ وماذا تقول عن عالم الحيوان وعالم الإنسان؟ ألم يعترف علم البيولوجيا في كل خطوة من خطواته، أن كل خلية في جسم الإنسان لها عمل خاص، وأن الخلايا تختلف عن بعضها في عملها، وأنه إن تعطلت بعض الخلايا، تغير سلوك الإنسان كله، من حيث الصحة والعمل والنشاط، والتفكير والخلق الحق.

ألخص في كلمات قليلة، إن الذين لا يعرفون شيئًا، أو الذين يعيشون في الحياة بعمى قلب، وبصيرة مفقودة، هم الذين لا يفهمون من هذه الطبيعة وجود الله. قال أحد الفلاسفة: "الكون إنما هو كتاب اللاهوت، الذي قرأه الفلاسفة فكان لهم إنجيلًا، وهو مرآة الله التي نظروا بها صورته الجميلة، وهو النفير الذي صوت عن تدبير الله، بما أوجده فيها من ترتيب ونظام" وآخر الأمر كله يقول القديس بولس: "لأن أموره غير المنظورة ترى منذ خلق العالم، مدركة بالمصنوعات قدرته السرمدية ولاهوته، حتى إنهم بلا عذر" (رو ١:٢٠) وفى ختام الأمر كله، لا تنزعجوا ولا تضطربوا في إيمانكم بالله، لم أذكر لكم أقوال الفلاسفة لتؤمنوا بالله على أساس أقوالهم، ولكن لكي تعرفوا أن تردوا على الإشاعات الكاذبة التي

يروجها ضعفاء النفوس. وسواء اعترف الفلاسفة أم لم يعترفوا، فماذا يغنينا من كل ذلك. إن عشت مع الله فستعرف حقًا أنه مبارك إلى الأبد، آمين.

من كتاب (الإلحاد المعاصر)، سلسلة (أنت تسأل والأنبا غريغوريوس يجيب) الجزء (٢).

الأدلة المادية على وجود الله

الشيخ محمد متولي الشعراوي

لقد كشف العلم الحديث أن الليل يحيط بالأرض من كل مكان، وأن الجزء الذي تتكون فيه حالة النهار هو الهواء الذي يحيط بالأرض، ويمثل قشرة رقيقة تشبه الجلد، وإذا دارت الأرض سلخت حالة النهار الرقيقة، التي كانت متكونة بسبب انعكاسات الأشعة القادمة من الشمس على الجزئيات الموجودة في الهواء، مما يسبب النهار، فيحدث بهذا الدوران سلخ النهار من الليل، والله يقول: "وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ" [يس:٣٧].

إن القرآن الكريم لم يأتِ بالدلائل التي تؤكد لنا أن الأرض كروية في آية واحدة، بل جاء بها في آيات متعددة. لماذا؟ لأن هذه القضية كونية كبرى، ولأن الكتب القديمة التي أنزلها الله قبل القرآن الكريم قد حرفت بشريًا، فأوجدت تصادمًا بين الدين والعلم؛ ولذلك يأتي القرآن الكريم ليعطينا الدليل تلو الدليل على كروية الأرض.

يقول الله سبحانه وتعالى: "لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ" [يس:٤٠].

الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة يرد على اعتقاد غير صحيح، كان موجودًا عند العرب وقت نزول القرآن، ويجيء الحق ليصحح هذا الاعتقاد الخطأ فيقول: "وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ" أي أنكم تعتقدون أن النهار لا يسبق الليل، ولكن الله يقول لكم إن الليل أيضًا لا يسبق النهار، ومعنى أن النهار لا يسبق الليل وأن الليل لا يسبق النهار، أنهما موجودان معًا على سطح الكرة الأرضية. وحيث إنه لم يحدث تغيير في خلق الكون أو في القوانين الكونية العليا بعد أن تم الخلق، بل بقيت ثابتة تسير على نظام دقيق حتى قيام الساعة، فلو كانت الأرض على شكل هندسي آخر مربع أو مثلث أو غير ذلك، لكان في ساعة الخلق وجد النهار أولًا، ولكن لا يمكن أن يوجد الليل والنهار معًا في وقت واحد على سطح الكرة الأرضية، إلا إذا كانت الأرض كروية. فيكون نصف الكرة مضيئًا والنصف الآخر مظلمًا.

ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يؤكد هذا المعنى، فذكر آية أخرى تحدد معنى كروية الأرض ودورانها. فقال ﷻ: "وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا" [الفرقان:٦٢].

ما معنى خلفة؟ معناها أن الليل والنهار يخلف كل منهما الآخر، فمثلًا في الحراسات المستمرة تأتي نوبة حراسة لتخلف نوبة سبقتها، ثم تأتي النوبة الثالثة لتخلف الثانية وهكذا، وإذا فرضنا أن مصنعًا يعمل أربعًا وعشرين ساعة متوالية، فإنه يكون هناك أربع ورديات تخلف كل منهما الأخرى، ولكننا لا بد أن ننتبه إلى أنه في كل هذه النظم، لا بد أن تكون

هناك وردية هي التي بدأت ولم تخلف أحدًا، فإذا قررنا وضع الحراسة على مكان، فإن الوردية الأولى التي تبدأ الحراسة لا تخلف أحدًا؛ لأنها البداية.

وإذا بدأنا العمل في المصنع، فإن الوردية الأولى التي افتتحت العمل لم تخلف أحدًا؛ لأنه لم يكن هناك في المصنع عمل قبلها، وهكذا في كل شيء في الدنيا، يخلف بعضه بعضًا، تكون البداية دائمًا وليس هناك شيء قبلها تخلفه، ولكن الحق سبحانه وتعالى قال: "وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً".

ومادام الله هو الذي جعل فلا بد أن يكون ذلك قد حدث ساعة الخلق، فأوجد الليل والنهار خلفة على الأرض، ولكن كما أوضحنا فإن ساعة البداية في كل شيء لا يكون فيها خلفة، أي لا يخلف شيء شيئًا قبله، فهذه هي البدايات، ولكن الله يقول لنا إنه في ساعة البداية كان الليل والنهار خلفة، إذن فلا بد أن يكون الليل والنهار قد وجدا معًا ساعة الخلق في الأرض، بحيث أصبح كل منهما خلفة للآخر، فلم يأتِ النهار أولًا ثم خلفه الليل؛ لأنه في هذه الحالة لا يكون النهار خلفة بل يكون بداية، ولم يأتِ الليل أولًا ثم يخلفه النهار؛ لأنه في هذه الحالة لن يكون الليل خلفه، بل يكون بداية.

ولا يمكن أن يكون الليل والنهار كل منهما خلفة للآخر إلا إذا وجدا معًا، ونحن نعلم أن الليل والنهار يتعاقبان علينا في أي بقعة من بقاع الأرض، فلا توجد بقعة هي نهار دائم بلا ليل، ولا توجد بقعة هي ليل دائم

بلا نهار، بل كل بقاع الأرض فيها ليل وفيها نهار. ولو أن الأرض ثابتة لا تدور حول نفسها، ووجد الليل والنهار معًا ساعة الخلق فلن يكونا خلفة ولن يخلف أحدهما الآخر، بل يظل الوضع ثابتًا كما حدث ساعة الخلق، وبذلك لا يكون النهار خلفة لليل ولا الليل خلفة للنهار، ولكن لكي يأتي الليل والنهار يخلف كل منهما الآخر، فلا بد أن يكون هناك دوران للأرض لتحدث حركة تعاقب الليل والنهار.

فثبوت الأرض منذ بداية الخلق لا يجعل الليل والنهار يتعاقبان، ولكن حركة دوران الأرض حول نفسها هي التي ينتج عنها هذا التعاقب أو هذه الخلفة التي أخبرنا الله سبحانه وتعالى بها، إذن فقول الحق سبحانه وتعالى: "وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً" يحمل معنيين: المعنى الأول أنهما خلقا معًا، فلم يسبق أحدهما الآخر، وهذا إخبار لنا من الله سبحانه وتعالى بأن الأرض كروية، والمعنى الثاني أن الأرض تدور حول نفسها، وبذلك يتعاقب الليل والنهار.

موج من فوقه موج، هذه حقيقة تم الوصول إليها بعد إقامة مئات من المحطات البحرية، والتقاط الصور بالأقمار الصناعة، والذي قال هذا الكلام هو البروفيسور شرايدر، وهو من أكبر علماء البحار بألمانيا الغربية. كان يقول: "إذا تقدم العلم فلا بد أن يتراجع الدين"، لكنه عندما سمع معاني آيات القرآن بهت، وقال: "إن هذا لا يمكن أن يكون كلام بشر"، ويأتي البروفيسور دورجاروا أستاذ علم جيولوجيا البحار ليعطينا ما وصل إليه العلم في قوله تعالى: "أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ

مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ" [النور: ٤٠].

فيقول لقد كان الإنسان في الماضي لا يستطيع أن يغوص بدون استخدام الآلات أكثر من عشرين مترًا، ولكننا نغوص الآن في أعماق البحار بواسطة المعدات الحديثة، فنجد ظلامًا شديدًا على عمق مائتي متر، الآية الكريمة تقول: "بَحْرٍ لُجِّيٍّ".

كما أعطتنا اكتشافات أعماق البحار صورة لمعنى قوله تعالى: "ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ" فالمعروف أن ألوان الطيف سبعة، منها الأحمر والأصفر والأزرق والأخضر والبرتقالي إلى آخره، فإذا غصنا في أعماق البحر تختفي هذه الألوان واحدًا بعد الآخر، واختفاء كل لون يعطي ظلمة، فالأحمر يختفي أولًا ثم البرتقالي ثم الأصفر، وآخر الألوان اختفاء هو اللون الأزرق على عمق مائتي متر.

كل لون يختفي يعطي جزءًا من الظلمة، حتى تصل إلى الظلمة الكاملة، أما قوله تعالى: "مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ" فقد ثبت علميًا أن هناك فاصلًا بين الجزء العميق من البحر والجزء العلوي، وأن هذا الفاصل مليء بالأمواج، فكأن هناك أمواجًا على حافة الجزء العميق المظلم من البحر، وهذه لا نراها، وهناك أمواج على سطح البحر، وهذه نراها. فكأنها موج من فوقه موج، وهذه حقيقة علمية مؤكدة، ولذلك قال البروفيسور

دورجاروا عن هذه الآيات القرآنية: "إن هذا لا يمكن أن يكون علمًا بشريًا".

إثبات كروية الأرض

إن القرآن كلام الله المتعبد بتلاوته إلى يوم القيامة، ومعنى ذلك أنه لا يجب أن يحدث تصادم بينه وبين الحقائق العلمية في الكون؛ لأن القرآن الكريم لا يتغير ولا يتبدل، ولو حدث مثل هذا التصادم لضاعت قضية الدين كلها. ولكن التصادم يحدث من شيئين: عدم فهم حقيقة قرآنية أو عدم صحة حقيقة علمية، فإذا لم نفهم القرآن جيدًا وفسرناه بغير ما فيه حدث التصادم، وإذا كانت الحقيقة العلمية كاذبة حدث التصادم، ولكن كيف لا نفهم الحقيقة القرآنية؟ سنضرب مثلًا لذلك ليعلم الناس أن عدم فهم الحقيقة القرآنية قد يؤدي إلى تصادم مع حقائق الكون.

الله سبحانه وتعالى يقول في كتابه العزيز: "وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا" [الحجر:١٩]. المد معناه البسط، ومعنى ذلك أن الأرض مبسوطة، ولو فهمنا الآية على هذا المعنى لاتهمنا كل من تحدّث عن كروية الأرض بالكفر، خصوصًا أننا الآن بواسطة سفن الفضاء والأقمار الصناعية قد استطعنا أن نرى الأرض على هيئة كرة تدور حول نفسها.

نقول إن كل من فهم الآية الكريمة "وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا" بمعنى أن الأرض مبسوطة لم يفهم الحقيقة القرآنية التي ذكرتها هذه الآية الكريمة،

ولكن المعنى يجمع الإعجاز اللغوي والإعجاز العلمي معًا، ويعطي الحقيقة الظاهرة للعين والحقيقة العلمية المختفية عن العقول في وقت نزول القرآن.

عندما قال الحق سبحانه وتعالى: "وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا" أي بسطناها، أقال أي أرض؟ لا، لم يحدد أرضًا بعينها، بل قال الأرض على إطلاقها، ومعنى ذلك أنك إذا وصلت إلى أي مكان يسمى أرضًا تراها أمامك ممدودة أي منبسطة، فإذا كنت في القطب الجنوبي أو في القطب الشمالي، أو في أمريكا أو أوروبا أو في أفريقيا أو آسيا، أو في أي بقعة من الأرض، فإنك ترها أمامك منبسطة، ولا يمكن أن يحدث ذلك إلا إذا كانت الأرض كروية، فلو كانت الأرض مربعة أو مثلثة أو مسدسة أو على أي شكل هندسي آخر، فإنك تصل فيها إلى حافة، لا ترى أمامك الأرض منبسطة، ولكنك ترى حافة الأرض ثم الفضاء.

إن الشكل الهندسي الوحيد الذي يمكن أن تكون فيه الأرض ممدودة في كل بقعة تصل إليها هي أن تكون الأرض كروية، حتى إذا بدأت من أي نقطة محددة على سطح الكرة الأرضية، ثم ظللت تسير حتى عدت إلى نقطة البداية، فإنك طوال مشوارك حول الأرض ستراها أمامك دائمًا منبسطة، وما دام الأمر كذلك فإنك لا تسير في أي بقعة على الأرض إلا وأنت تراها أمامك منبسطة، وهكذا كانت الآية الكريمة "وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا".

لقد فهمها بعض الناس على أن كون الأرض مبسوطة دليل على كروية الأرض، وهذا هو الإعجاز في القرآن الكريم، يأتي باللفظ الواحد ليناسب ظاهر الأشياء، ويدل على حقيقتها الكونية؛ ولذلك فإن الذين أساؤوا فهم هذه الآية الكريمة وأخذوها على أن معناها أن الأرض منبسطة، قالوا هناك تصادم بين الدين والعلم، والذين فهموا معنى الآية الكريمة فهمًا صحيحًا قالوا إن القرآن الكريم هو أول كتاب في العالم ذكر أن الأرض كروية، وكانت هذه الحقيقة وحدها كافية بأن يؤمنوا، ولكنهم لا يؤمنون.

وهكذا نرى الإعجاز القرآني، فالقائل هو الله، والخالق هو الله، والمتكلم هو الله، فجاء في جزء من آية قرآنية ليخبرنا أن الأرض كروية وأنها تدور حول نفسها، ولا ينسجم معنى هذه الآية الكريمة إلا بهاتين الحقيقتين معًا، هل يوجد أكثر من ذلك دليل مادي على أن الله هو خالق هذا الكون؟ ثم يأتي الحق سبحانه وتعالى ليؤكد المعنى في هذه الحقيقة الكونية؛ لأنه سبحانه وتعالى يريد أن يري خلقه آياته، فيقول: "خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ" [الزمر:٥].

وهكذا يصف الحق سبحانه وتعالى بأن الليل والنهار خلقا على هيئة التكوير، وبما أن الليل والنهار وجدا على سطح الأرض معًا، فلا يمكن أن يكونا على هيئة التكوير إلا إذا كانت الأرض نفسها كروية، بحيث يكون

نصف الكرة مظلمًا والنصف الآخر مضيئًا، وهذه حقيقة قرآنية أخرى تذكر لنا أن نصف الأرض يكون مضيئًا والنصف الآخر مظلم.

فلو أن الليل والنهار وجدا على سطح الأرض غير متساويين في المساحة، بحيث كان أحدهما يبدو شريطًا رفيعًا، في حين يغطي الآخر معظم المساحة، ما كان الاثنان معًا على هيئة كرة؛ لأن الشريط الرفيع في هذه الحالة سيكون في شكل مستطيل أو مثلث أو مربع، أو أي شكل هندسي آخر، حسب المساحة التي يحتلها فوق سطح الأرض، وكان من الممكن أن يكون الوضع كذلك باختلاف مساحة الليل والنهار. ولكن قوله تعالى: "يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْل" دليل على أن نصف الكرة الأرضية يكون ليلًا والنصف الآخر نهارًا.

وعندما تقدم العلم وصعد الإنسان إلى الفضاء، ورأى الأرض وصورها، وجدنا فعلًا أن نصفها مضيء ونصفها مظلم كما أخبرنا الله سبحانه وتعالى. فإذا أردنا دليلًا آخر على دوران الأرض حول نفسها لا بد أن نلتفت إلى الآية الكريمة في قوله تعالى: "وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ" [النمل:٨٨].

عندما نقرأ هذه الآية ونحن نرى أمامنا الجبال ثابتة جامدة لا تتحرك نتعجب؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: "تَحْسَبُهَا جَامِدَةً"، ومعنى ذلك أن رؤيتنا للجبال ليست رؤية يقينية، ولكن هناك شيئًا خلقه الله سبحانه

وتعالى وخفي عن أبصارنا، فما دمنا نحسب فليست هذه هي الحقيقة، أي أن ما نراه من ثبات الجبال وعدم حركتها، ليس حقيقة كونية، وإنما إتقان من الله سبحانه وتعالى وطلاقة قدرة الخالق؛ لأن الجبل ضخم كبير بحيث لا يخفى عن أي عين. فلو كان حجم الجبل دقيقًا لقلنا لم تدركه أبصارنا كما يجب، أو أننا لدقة حجمه لم نلتفت إليه، هل هو متحرك أم ثابت. ولكن الله خلق الجبل ضخمًا يراه أقل الناس إبصارًا؛ حتى لا يحتج أحد بأن بصره ضعيف لا يدرك الأشياء الدقيقة، وفي نفس الوقت قال لنا أن هذه الجبال الثابتة تمر أمامكم مر السحاب.

ولماذا استخدم الحق سبحانه وتعالى حركة السحب وهو يصف لنا تحرك الجبال؟ لأن السحب ليست ذاتية الحركة، فهي لا تتحرك من مكان إلى آخر بقدرتها الذاتية، بل لا بد أن تتحرك بقوة تحرك الرياح ولو سكنت الريح لبقيت السحب في مكانها بلا حركة، وكذلك الجبال. الله سبحانه وتعالى يريدنا أن نعرف أن الجبال ليست لها حركة ذاتية، أي أنها لا تنتقل بذاتيتها من مكان إلى آخر، فلا يكون هناك جبل في أوروبا، ثم نجده بعد ذلك في أمريكا أو آسيا، ولكن تحركها يتم بقوة خارجة عنها هي التي تحركها. وبما أن الجبال موجودة فوق الأرض، فلا توجد قوة تحرك الجبال إلا إذا كانت الأرض نفسها تتحرك ومعها الجبال التي فوق سطحها.

وهكذا تبدو الجبال أمامنا ثابتة؛ لأنها لا تغير مكانها، ولكنها في نفس الوقت تتحرك؛ لأن الأرض تدور حول نفسها، والجبال جزء من الأرض، فهي تدور معها تمامًا كما تحرك الريح السحاب. ونحن لا نحس

بدوران الأرض حول نفسها؛ ولذلك لا نحس أيضًا بحركة الجبال. وقوله تعالى: "وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ" معناها أن هناك فترة زمنية بين كل فترة تمر فيها؛ ذلك لأن السحاب لا يبقى دائمًا بل تأتي فترات ممطرة وفترات جافة وفترات تسطع فيها الشمس، وكذلك حركة الجبال تدور وتعود إلى نفس المكان كل فترة.

وإذا أردنا أن نمضي فالأرض مليئة بالآيات، ولكننا نحن الذين لا نتنبه، وإذا نبه الكفار فإنهم يعرضون عن آيات الله، تمامًا كما حدث مع رسول الله (ﷺ)، حين قال له الكفار في قوله تعالى: "وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا" [الإسراء:٩١-٩٢]. وكان كل هذا معاندة منهم؛ لأن الآيات التي نزلت في القرآن الكريم فيها من المعجزات الكثيرة التي تجعلهم يؤمنون.

آلهة الجاهلية

صالح جودت

دبت الغيرة في قلب (سارة) بعد أن وضعت (هاجر) المصرية ولدها إسماعيل بن إبراهيم (عليهما السلام)، فخرج إبراهيم بهاجر وولدها يضربون في الأرض، حتى بلغوا موقع مكة، وهناك بنى البيت. واستقرت الأم ووليدها، وتفجر الماء، وتكاثر الناس وأخذت القبائل تفد على هذا الموقع طلبًا للسقيا، فطاب لها المقام وتكاثر الناس حول البيت، ووقعت بينهم الحروب والعداوات، وكانوا جميعًا على دين إبراهيم، حنفاء يعبدون الله الأحد الذي لا شريك له، فلما حدث هذا الانفجار السكاني في مكة، أخذ كل قوم –وهم راحلون– حجرًا من أحجار الكعبة تيمنًا بها، ثم ما لبثوا أن عبدوا هذا الحجر، وهكذا عادت الوثنية بعد الدين.

قبل هذه القصة بكثير كان آدم وحواء يعيشان في الجنة، إلى أن قربا الثمرة المحرمة، طاعة لإبليس، فغضب الله عليهما، ونزلا إلى الأرض، أين نزلا؟ تلك هي البقعة التي اختلفت فيها الروايات، وتقول إحداها أن الهبوط كان عند جبل (نود)، بالهند وهو أخصب جبل في الأرض، وظل آدم وامرأته وأبناؤه يعبدون الله حتى مات آدم، فدفنه ابنه (شيث) في مغارة بالجبل، وراح هو وأبناؤه بعد ذلك يطوفون بهذه المغارة ويبكون أباهم وهم يذكرون الله.

فقال رجل من بني قابيل بن آدم (أخي شيث) لأبنائه: "إن لأبناء شيث ما يطوفون حوله ويعظمونه، وأنتم ما لكم من شيء، وإني لصانعه لكم". ونحت لهم منها، وراح أبناء قابيل يطوفون حوله، فكان أول صنم في الأرض.

وجاء نوح (عليه السلام) يدعو الناس إلى عبادة الله ونبذ الأصنام، وكانت الأصنام على عهد نوح خمسة، ذكرها الله في كتابه الكريم، في قوله: "قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا * وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا * وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلالًا" [نوح: ٢١-٢٤].

فما قصة هذه الأصنام الخمسة؟

قبل أن نرويها، نحب أن يعرف من لا يعرف من القراء الفارق بين الصنم والوثن في اللغة، لا في الاستعمال. يقول أبو المنذر هشام بن محمد الكلبي: "إذا كان معمولًا من خشب أو ذهب أو من فضة على صورة إنسان فهو صنم، وإذا كان من حجارة فهو وثن".

ثم يقول إن تلك الأسماء الخمسة، ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، كانوا قومًا صالحين، ماتوا في شهر، فجزع عليهم ذوو قرباهم، فقال رجل من بني قابيل: "هل لكم أن أعمل لكم خمسة أصنام على صورهم، غير أني لا اقدر أن أجعل ليها أرواحًا؟ قالوا: نعم.

فنحت لهم خمسة أصنام على صورهم ونصبها لهم، فكان الرجل منهم يأتي الصنم الذي يشبه أخاه أو عمه أو ابن عمه فيعظمه، ويسعى حوله، حتى ذهب ذلك القرن الأول.

آلهة الجاهلية

ثم جاء قرن آخر، فعظموهم أشد من تعظيم القرن الأول، ثم جاء من بعدهم القرن الثالث، فقالوا: "ما عظم أوّلونا هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم عند الله" فعبدوهم، وعظم أمرهم واشتد كفرهم، فبعث الله إليهم إدريس (عليه السلام) نبيًا، دعاهم فكذبوه، ولم يزل أمرهم يشتد حتى جاء نوح، فدعاهم إلى الله فكذبوه، فأمره الله أن يصنع الفلك، ففرغ منها وركبها من ركب، وغرق من غرق.

ونعود إلى ما ألمحنا إليه في التقدمة لهذا الحديث، من حكاية الانفجار السكاني في مكة.

يقول أبو المنذر الكلبي إنه لما كثر نسل إسماعيل (عليه السلام) في مكة حتى ملؤوها، ونفوا من كان بها من العماليق، ضاقت عليهم الرقعة، ووقعت بينهم الحروب والعداوات، أخرج بعضهم بعضًا، فتفسحوا في البلاد التماسًا للعيش.

وكانوا إذ هم في مكة لا يزالون على دين إبراهيم، فلما خرجوا أخذ كل قوم معهم حجرًا من حجارة الحرم؛ تعظيمًا للبيت وتذكارًا للوطن،

فكانوا حيثما حلوا نصبوه وطافوا حوله، إلى أن انتهى بهم الأمر إلى عبادته واتخاذه وثنًا لهم، وهم مع ذلك يعظمون البيت ويحجون إليه، ويؤدون الطواف والعمرة والوقوف على عرفة ومزدلفة.

وهكذا بدأ الشرك، كانت نزار مثلًا تقول إذا أهلت: "لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك.. إلا شريكًا هو لك.. تملكه وما ملك".

وهكذا يؤمنون بالقول ثم لا يلبثون أن يشركوا، ويوحدون ثم يجعلون مع الله شريكًا من خلقه. وكان أول من غير دين إسماعيل ونصب الأوثان هو لحي بن حارثة، وكانت أم عمرو بن لحي، هي فهيرة بنت عمرو بن الحارث، وكان الحارث هو الذي يلي أمر الكعبة، فلما بلغ عمرو بن لحي نازعه في الولاية وغلبه وتولى حجابة البيت، ثم مرض مرضًا شديدًا، فقيل له أن بالبلقاء من الشام حمة إن أتيتها برأت، فأتاها فاستحم بها فبرأ. ووجد أهلها يعبدون الأصنام، فسألهم ما هذه؟ فقالوا نستسقي بها المطر ونستنصر بها على العدو، فسألهم أن يعطوه منها ففعلوا، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة، وكان هذا أول عهد مكة بالوثنية.

وأول صنم عبده العرب هو (مناة)، وكانت منصوبة على البحر بين مكة والمدينة، وقد عظمها العرب جميعًا ولا سيما الأوس والخزرج، وذبحوا وأهدوا لها، إلى أن كانت السنة الثامنة من الهجرة، فهدمها على (رضي الله عنه).

وثاني أصنامهم هو (اللات) وهي بالطائف، وكانت صخرة مربعة، ولم تزل معبودة حتى أسلمت ثقيف، فبعث النبي (ﷺ) المغيرة بن شعبة، فهدمها وحرقها بالنار.

وثالث أصنامهم هو (العزى)، وكانت بوادٍ من نخلة الشامية، عن يمين المصعد من العراق إلى مكة. وكانت العزى أعظم الأصنام عند قريش، وكانوا يزورونها ويهدون لها، ويتقربون عندها بالذبح. ولم تزل العزى كذلك حتى بعث الله نبيه، فأمر خالد بن الوليد أن يسير إليها في عام الفتح، فسار إليها فحطمها. وكانت قريش تقول في هذه الأصنام الثلاثة: "واللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، فإنهن الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى"، وكانوا يقولون: "هن بنات الله، وهن يشفعن إليه".

فلما جاء النبي (ﷺ) أنزل الله عليه قوله الكريم: "أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى * إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ" [النجم].

وكانت للعرب –إلى جانب هذه الثلاثة– أصنام كثيرة أخرى، وكانت لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها، أعظمها (هبل)، وكان مصنوعًا من عقيق أحمر على صورة إنسان يده اليمنى مكسورة، فصنعوا له يدًا من ذهب. وكانوا يضعون أمامه قداحًا سبع لاختبار الأمور، فإذا شك أحد الناس في ولده، استشار هذه القداح، فإذا خرج قدح صريح كان

الولد ولده، وإلا كان الولد ابن سفاح. وكذلك كانوا يستشيرونها في الزواج والسفر والتجارة.. إلخ.

ومن هذه الأصنام، إساف ونائلة، وتقول الأسطورة إن إسافًا ونائلة كانا رجلًا وامرأة من جرهم، وإنهما تحابا، ودخلا البيت، فلما أمنا العيون ارتكبا الحدث داخل الحرم، فسخطهما الله فأصبحا صنمين، وعبدهما الناس. فلما كان يوم فتح مكة، دخل الرسول (ﷺ) المسجد، والأصنام منصوبة حول الكعبة، فجعل يطعن بسن قوسه في عيونها ووجوهها، ويقول: "جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا" ثم أمر بها فكفئت على وجوهها، ثم أخرجت من المسجد فحرقت.

وفي ذلك قال راشد بن عبد الله السلمي:

قالت هلمَّ إلى الحديثِ فقلت لا	يأبى الإله عليك والإسلام
أو ما رأيت محمدًا وقبيلَه	بالفتحِ حين تكسر الأصنام
لرأيت نور الله أضحى ساطعًا	والشرك يغشَى وجهه الإظلام

وكانت لهم إلى جانب الأصنام بيوت يصنعونها على غرار بيت إبراهيم، ويقدسونها ويطوفون بها. فكان لحمير بيت بصنعاء يقال له (ريام)، يعظمونه ويتقربون عنده بالذبائح، وقد بقي (ريام)، حتى هدمه أحبار اليهود، حينما انتشرت اليهودية في اليمن.

وروى الجاحظ في كتاب (الحيوان)، أنه كان لثقيف بيت لللات بالطائف، له سدنة، يضاهون بذلك قريشًا. وكذلك كان للعزى بيت بوادٍ من نخلة الشامية، وكان لبني كعب بن سعد بن عبد مناة، بيت يقال له (رضا) هدمه المستوغر عمرو بن ربيعة في الإسلام، وقال:

ولقد شددت على رضاه شدة   فتركتها تلا تنازع أسحما

ودعوت عبد الله في مكروهها   ولمثل عبد الله يغشى المحرما

وكانت لبني الحارث بن كعبة في نجران يعظمونها، وكانت لإياد كعبة أخرى بسنداد من أرض بين الكوفة والبصرة.

مما تقدم، نستخلص أن العرب بطبيعتهم قوم مجبولون على الإيمان، ولولا ذلك الانفجار السكاني الذي وقع في مكة، وانتهى الى تفرق بعض أهلها في الأرض، لبقوا على دين إبراهيم حنفاء.

ولكنهم حتي بعد أن تفرقوا في الأرض، تشبثوا وهم راحلون ببعض حجارة الكعبة؛ تمسكًا بدين إبراهيم. فلما أوهن الزمن وازع الدين، وقويت نوازع السياسة، حفظوا على مكة أن بها البيت، وهو الذي يجعل لأهل مكة السيادة على العرب، فبنى كل قوم لأنفسهم بيتًا، واستقلوا بآلهتهم عن آلهة مكة.

ودليلنا على هذا أن رجلًا من جهينة، يقال له عبد الدار ابن حديب، قال لقومه: "هلم نبني بيتًا نضاهي به الكعبة حتى نستميل به كثيرًا

من العرب" (وفي رواية أخرى: حتى يشتمل به العرب). واقترح عليهم مكانًا من أرضهم يقال له الحوراء، ولكن قومه أبوا عليه ذلك إعظامًا للكعبة، التي بقيت لها مكانتها الراسخة في قلوب العرب، رغم سائر ما ابتنوا من بيوت يضاهونها بها.

وقد بلغ من حب العرب للعبادة، أنه كانت لهم حجارة غير منصوبة، يطوفون بها ويعترون عندها (أي يذبحون عندها) يسمونها الأنصاب، ويطرفون بها، ويسمون الطواف (الدوار). وكانوا في أعماقهم يحسون رهبة التعبد ووجوب التطهر بإزائه، فيمنعون الحائض من النساء أن تدنو من الأصنام أو تتمسح بها، بل تقف بمنأى عنها.

ومن (الأنصاب) أيضًا أن من لم يقدر منهم على اتخاذ صنم أو بناء بيت، نصب حجرًا أمام الحرم وأمام غيره، ثم طاف به كطوافه بالبيت، وكان الرجل منهم إذا سافر فنزل منزلًا، أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها فاتخذه ربًا، وجعل الثلاثة الباقية أثافي لقدره.

ومما يثبت قولنا أن الفكرة في اتخاذ البيوت والأصنام المستقلة كانت فكرة سياسية النشأة، أن أبرهة الأشرم بنى بيتًا بصنعاء، وجعله كنيسة سماها (القليس)، وزينها بالرخام والخشب المذهب، وكتب إلى ملك الحبشة يقول له: "إني بنيت لك كنيسة لم يبنِ مثلها أحد قط، ولست تاركًا العرب حتى أصرف حجهم عن بيتهم الذي يحجون إليه".

وسمع بعض أهل مكة من نسأة الشهور هذه الحكاية، فأوفدوا رجلين من قومهم إلى صنعاء، فقصدا إلى القلب فتغوطا فيه، فلما علم أبرهة بذلك غضب، وقال: من اجترأ على هذا؟ قيل: بعض أهل الكعبة، فازداد غضبه، وخرج بالفيل والحبشة، فكان من أمره ما كان مما روته سورة الفيل.

وبعث الله نبيه (عليه الصلاة والسلام)، فهدم الأصنام والأوثان والأنصاب، وأتى القوم بتوحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، وجعل البيت الذي لا بيت سواه قبلة لسائر المسلمين، حتى أخذهم العجب وقالوا: "أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ".

الله عند بوذا وكونفوشيوس

علي أدهم

يمتاز القرن السادس قبل الميلاد بظهور طائفة من العباقرة الأفذاذ، الذين أثروا في تاريخ البشرية تأثيرًا بعيد المدى، وفي طليعتهم (ماهافيرا) وبوذا في الهند، ولاوتري وكونفوشيوس في الصين، وزرادشت في فارس، وفلاسفة ما قبل سقراط في اليونان. ومما يمهد السبيل لظهور الرجل العظيم أو رجل الأقدار قدرته على أن يلبي حاجة عصره. وقد جاء كثير من العلماء في الوقت المناسب لظهورهم ووجدوا المجال الأداء رسالتهم.

كانت الهند في القرن السادس قبل الميلاد قد بلغت مستوى عاليًا في الأخذ بأسباب الحضارة، وازدهرت بها الصناعة والتجارة، واتسع شراؤها، وإذا عم الرغد والرخاء ساعدا على ظهور النزعة الأبيقورية، ومالت النفوس إلى التحرر من قيود الورع، والإسراف في طلب المتعة، مما يفسح المجال لظهور النزعات الأخلاقية والاتجاهات الفكرية المناسبة لذلك. ولكن هذه الحالة نفسها تستدعي ظهور رد فعل يحد من طغيانها ويحاول ضد تيارها، وقد تكرر ذلك في كثير من الحضارات التي عرفها التاريخ، وكان ظهور البوذية في الهند والكونفوشيوسية في الصين من قبيل الاستجابة لهذه الحاجة التي شعر بها العصر وأحسها الناس. وظهور

العظماء في أغلب الاحايين يتفق مع منطق الأحداث واتجاهات التاريخ وسير الحضارات.

طريق الحكمة والقداسة

ولد بوذا في سفوح جبال الهيمالايا شمال الهند، في المنطقة المعروفة باسم مقاطعة بهار، ويرى معظم الباحثين أنه ولد سنة **٥٦٣** ق.م. بمدينة كابيلافاستي، وكانت المدينة الرئيسية في الناحية التي تقيم بها قبيلة ساكيا على مسافة مائة ميل من بنارس الحالية، وكان والده سادنًا من أبناء عشيرة جواتاما، أحد فروع قبيلة ساكا، وكان حاكمًا على مدينة كابيلافاستي ومن طبقة الكشاتريا المحاربين، وهم من القبائل الأرية التي غزت الهند حوالي **١٦٠٠** ق.م.

وقد توفيت والدته في اليوم السابع من ميلاده، فتولت شقيقتها حضانته، وكانت الزوجة الثانية لأبيه، وقد نشأ جوتاما –وهو الاسم الذي غلب عليه– في قصر أبيه، وتوفرت له كل دواعي الرغد وأسباب الرفاهية، ولكن كان شديد الحساسية، كثير التفكير، جم العطف، وكان حينما يشاهد الجهد الفني الذي يبذله الفلاحون وهم يباشرون أعمالهم في الحقول وإهلاك الحشرات، يتملكه الأسى، ويثير تفكيره. وكان والده –مدفوعًا بحبه الأبوي– يحرص على أن يجنبه مشاهدة ما تعانيه البشرية من فوادح الآلام، فلما بلغ رشده قرر أبوه أن يزوجه، وترك له حق اختيار الزوجة تبعًا للتقاليد المرعية، وقد اختار الأمير جوتاما الأميرة الحسناء ابنة عمه من بين ألوف الشابات اللاتي عرضن عليه، وكان زواجه سعيدًا موفقًا، ولما كان من

طبقة الكشاتريا فقد روعي تدريبه على الفنون الحربية، ولكنه إلى جانب ذلك درس المذاهب الفكرية التي كانت سائدة في عصره، وعرف العقائد البرهمية الشائعة.

وتروي الروايات أنه خرج ذات يوم من قصره ومعه سائق مركبته شونا، وسار في بعض الطرقات حيث عامة الناس، فرأى رجلًا مسنًا قد أحنت الأيام صعدته، فتركت رؤيته في نفسه أثرًا باقيًا جعله يعود إلى قصره منكرًا مهمومًا. وخرج من القصر في اليوم التالي فوقعت عيناه على رجل مريض قد شفه المرض، فعاد إلى القصر حزينًا مغمومًا. وخرج من القصر في اليوم الثالث فرأى ميتًا محمولًا إلى القبر، ورأى أخيرًا أحد النساك. وكان شونا الذي صحبه في جولاته يحدثه عن المرض والموت ونبذ الحياة.

ولم يسترح أبوه حينما لحظ أثر الحالات النفسية التي يعانيها ابنه، وأراد أن يشغله بالملهيات والمتع الحسية، ولكن هذه المحاولات كانت تزيده عزوفًا عن الملذات الدنيوية. وأصبحت الرفاهية التي نشأ في ظلالها تثير اشمئزازه، وحدثت الأزمة بعد أن رزق طفلًا أسماه راهولا، وبرغم تعلقه بزوجته فإن خبر مولد الطفل جعله يطيل التفكير، وقد رأى في ميلاده عقبة جديدة في طريقه، ورأى أن الوقت قد حان ليقوم بما سماه الاعتزال.

وتقول الروايات المأثورة إنه حينما عقد العزم على تنفيذ الخطة التي رسمها لنفسه، أرسل شونا سائق مركبته الجواد وسرجه، ولما أسدل الليل ستاره تسلل إلى مخدع زوجته، وألقى عليها وعلى ابنه راهولا نظرة أخيرة،

وامتطى ظهر جواده بصحبة سائق عربته شونا، وقد تعلق بذيل الجواد قبل أن ينبلج نور الفجر. وخرج من باب المدينة حتى وصل إلى الغابة التي يقيم بها الكثيرون من النساك والعباد، وترجل عن جواده، وصرف سائق مركبته الأمين بعد أن أعطاه ما معه من الحلي الثمينة التي أصبح في غير حاجة إليها، وطلب من ناسكي الغابة وحكمائها أن يعلموه كيف يصل إلى الحكمة والقداسة.

وكان قد سمع عن الأساليب الشديدة التي يتبعونها في تعذيب أنفسهم وقهر شهواتهم، فقد كان بعضهم يكتفي بأن بعيش على القليل من حبات القمح، والبعض يكتفي بتناول الحشائش النابتة في المزارع، وكانوا يعتقدون أنهم يبلغون الكمال عن طريق إرهاق الجسد وتعذيبه.

سنوات تعذيب النفس

وصار في زمرة النساك الجوالة وتتلمذ على اثنين منهم، وهما[٢] الأراكالاما وأوداكا، وسلك سلوك النساء في تعذيب النفس وقهرها، وأخذ يقلل من تناول الغذاء حتى صار يكتفي بحبة واحدة من حبات القمح وضعفجسده وضفعت بنيته، ولكيلا يقال عنه أنه أخفق في التغلب على نفسه وقهرها، استمر في متابعة هذا التقشف المردي والإنهاك الجسدي الحازم حتى أشرف على الموت.

---

(٢) صفحة ٣٥ من كتاب البوذية المبكرة للعلامة رايس دافيدز.

وبعد ست سنوات من التزام هذا الأسلوب القاسي في حرمان النفس وإذلالها، رأى أن هذا الإسراف في تعذيب النفس ليس هو السبيل إلى الاستنارة المنشودة، وأن الأمر على نقيض ذلك، فهذه الصرامة البالغة قد ولدت فيه الشعور بالزهو الذي يفسد القداسة، ويغري بالاستغراق في الذات، ويولد سرعة الغضب، وينأى بالإنسان عن الهدوء والطمأنينة.

واستبان له أن عليه أن يعيد إلى نفسه توازنها، ويرد عليها هدوءها ووداعتها، ويستعيد قوته، وأن الإنسان يبلغ الراحة العقلية بالتوسط بين الإسراف والحرمان، وأن هذا التوسط هو سبيل التفكير المستقيم والتأمل السليم، وتناول اللبن والأرز، وعاد إلى أسلوب تغذيته المألوف حتى استرد عافيته وعادت إليه قوته. ولكن تغيير السلوك الذي أخذ نفسه باتباعه أبعد عنه أتباعه الخمسة الذين اجتمعوا حوله ليكون لهم المرشد إلى الطريق والقدوة الصالحة، وجعلهم يقولون: "لقد أخفق الناسك جوتاما، وليس عنده ما يعلمنا، وقد حاد عن الطريق".

وسط الزوابع والأعاصير

وحينما نبذ جوتاما الأسلوب المسرف في التقشف وإنهاك النفس بالمبالغة في الكبت والحرمان لم ينقطع عن ممارسة التفكير الروحي، والاستغراق في التأمل السامي، ومكنه استرداده لقوة بنيته من المضي في هذا السبيل، ورأى أن عليه أن يبلغ هدفه، أو يعترف بهزيمته في تحقيق مطلبه. وذهب إلى الغابة ورأى سرحة فينانة وارفة الظلال متهدلة الأغصان، وهي شجرة (البو) في غابات جايا بمدينة بهار الحديثة، فجلس

هناك جلسة مستقيمة لا حركة فيها، وصمم على ألا يبرح مكانه حتى تأتيه الاستنارة.

وأقبل الليل، وأرخى عليه سدوله، فحجبه عن الأنظار. وكانت ليلة رهيبة، صاول فيها الإغراء مصاولة شديدة، وتراءت له صور حياته السالفة، صور الحب والترف والمتعة والقوة والسلطان. وناوشت عقله الشكوك وهاجمته المشكلات المحيرة، وتجمعت حوله الأحلام الخادعة والأوهام المضلة. ولكن حب الإنسانية والعطف الشديد عليها، وحرصه على بلوغ مرتبة الاستنارة، مكنه ذلك كله من الثبات في وسط الزوابع والأعاصير، واستمسك بهدفه الأصيل كالسفينة العظيمة التي تشق طريقها بين العواصف وثوائر الموج إلى شاطئ الأمن والسلام.

قانون الثواب والعقاب

ولما انجلى الظلام وأسفر الصبح، تلقى الاستنارة كاملة لا يشوبها نقص، واضحة لا يحيط بها غرض، ورأى الماضي والحاضر والمستقبل كلًّا لا يتجزأ، وعرف العلل والأسباب، وأسرار الميلاد والموت، والانتقال إلى حيوات جديدة.

ومن أقواله في وصف تلك الحالة: "وهكذا ركزت عقلي في حالة من نقاء وصفاء، ركزته في فناء الكائنات وعودتها إلى الحياة في ولادة جديدة، وبنظرة قدسية مطهرة رأيت الكائنات الحية تمضي ثم تعود فتولد ولادة دنية أو سنية، خيرة أو شريرة، سعيدة أو شقية، حسب ما يكون لها من

(الكارما)، وفق ذلك القانون الشامل الذي بمقتضاه سيتلقى كل فعل خير ثوابه، وكل فعل شرير عقابه، في هذه الحياة أو في حياة تالية تتقمص فيها الروح جسدًا آخر[3].

مشكلات ما وراء الطبيعة

وقد ظهر مذهب تناسخ الأرواح، الذي أشار إليه بوذا في المؤلفات البرهمية ورسائل الأوبانيشاد قبل أن يولد بوذا بقرون عدة. وقبول هذا المذهب يظهر الإنسان مقيدًا دائمًا بصورة من صور الوجود، تختلف فيها رتبته من الحشرات التي لا تكاد تتنفس حتى تهلك، إلى إله من آلهة الفيدا. وذلك أن هذه الآلهة لم تكن معصومة من دورة التناسخ، ومن ثم كان فلاسفة ذلك العصر يلتمسون مخرجًا من هذا التكرار الذي لا نهاية له، ورأوا أنهم وجدوا هذا المخرج في الفكرة القائلة بإمكان تحقق النفس في الكلي الشامل؛ لأن النفس إذا أدركت أنها جزء من الكلي، وفنيت هذه الوحدة في لحظة من لحظات التجرد المطلق، وشطحة من شطحات التصوف، تحطمت الروابط التي تربط الإنسان بالحياة إلى الأبد. وقد يعيش الإنسان سنوات قلائل في جسمه الفاني، ولكنه حينما يتجرد منه يستريح راحة أبدية لا راحة الفناء والعدم، وأن راحة الاتحاد بالكلي الذي هو روحه الحق.

---

(٣) صفحة ٧١ من الجزء الثالث من كتاب (قصة الحضارة) لول ديورانت، وترجمة الدكتور زكي نجيب محمود.

وكان بوذا يؤمن بالتناسخ، ويرى العمل على الخلاص من دوراته، ولكنه كان في مشكلات ما وراء الطبيعة لا أدريًا، وكان يرفض أن يبحث مع أتباعه المسائل الخاصة بالمطلق، وعلاقة الروح بالمطلق، ومسألة لا نهائية الزمان والمكان أو نهايتهما، بل وصل به الحال إلى حد إنكار الرغبة المتأججة عند الكثيرين من أتباعه، لمعرفة هل مصير جسم الرجل الذي وصل إلى الاستنارة الكاملة هو الفناء التام بعد الموت، أو أن مصيره لون من ألوان الحياة الخالدة؟

وأكبر الأسباب التي آلمت نفس بوذا وجعلته يضيق بالحياة البشرية، هو هذا النائب المستمر بين الموت والولادة، فكيف نتقي شره ونأمن دوران عجلته؟ وما دام يشك في وجود المطلق فهو لا يرى الخلاص عن طريق الاندماج في المطلق كما رأى فلاسفة البراهمة، وقد هداه تفكيره وتأملاته الطويلة إلى أن الانسان إذا عاش عيشة يسودها العدل والحب والرحمة والشفقة، وامتنع عن الإيذاء وإزهاق النفوس، وتخلى عن المطالب الدنيوية والمآرب والمطامع والشهوات، فإنه يستطيع أن يطهر نفسه من الآثام والشرور.

ولا يعبأ بوذا بوجود الآلهة أو عدم وجودها؛ لأن الإنسان في رأيه هو صانع مصيره، وهو يوصي الإنسان بألا يلجأ إلى أحد غير نفسه، وقد رأى بوذا أنه قد وفق إلى الحل المناسب للقضاء على شقاء الحياة وإيقاف دورة التناسخ، وهذا الحل هو القضاء على الرغبة في الحياة، وهذه ثمرة الجهل

بحقائق الحياة، ومتى استطاع الإنسان إخمادها تيسر له الوصول إلى (النرفانا) وتخلص من جحيم الرغبة وآلام الجهل.

وهكذا بعد أن قضى بوذا سبع سنوات متأملًا في الحياة، أدرك أنه قد وجد طريق الخلاص، فأخذ سمته نحو مدينته بنارس ليبشر بمذهبه ويبصر الناس بطرائق الخلاص من شقاء الحياة وآلام الوجود. وقد قضى بوذا بقية حياته متنقلًا يبشر بإنجيله في الخلاص، وكان في كل مكان يحفز الناس إلى تكوين جماعات من الرهبان لا يخضعون لنظام مقرر، وإنما يتعاهدون على أن يعيشوا وفقًا للمثال الذي قدمه لهم، وكان أسلوبه في نشر تعاليمه هو الحوار والمحاضرة وضرب الأمثال، وكان يتحاشى الغوص في مسائل ما وراء الطبيعة؛ لأنها فوق إدراكنا، ولأنها من ناحية أخرى لا تؤدي إلى الخلاص المنشود.

وكان بوذا في مناقشاته مع خصومه ومعارضيه واسع الصدر، كثير الحلم، محبًا للسلام، يرد السيئة بالحسنة والكراهية بالحب، وإذا احتدم الجدل بينه وبين من يحاوره آثر الصمت، ولم يكن يدعي القدرة على شفاء الأمراض أو الإتيان بالأعمال السحرية، وإنما كان يبشر بما كان يعتقد أنه الحق، وقد لقي في تجواله تلامذته الخاصة، الذين هجروه واعتزموا الابتعاد عنه لظنهم أنه تنكر لمبادئه، ولكنه تجاهل إعراضهم عنه، ولما ناداهم وهو يحمل في يده الإناء الذي كان يجمع فيه الصدقات، وجدوا أنفسهم مندفعين نحوه، فشرع في توضيح رسالته لهم.

وذكر لهم أن الوجود بدون استنارة ليس سوى تكرار معمل للميلاد والموت، وأن أول عقبة في سبيل الحصول على الاستنارة هي الإسراف في المتع الحسية؛ لأن شدة التورط فيها يزيد عدم اقتناعنا بها، ويغري بطلب المزيد منها، ويصبح الإنسان مثل الرجل الديّن الذي يكثر من الاستدانة ليسدد ديونه، وأن العقبة الثانية في طريق الخلاص هي المبالغة في التحايل على النفس، والإسراف في تعذيب النفس غير مجدٍ مثل الاسترسال الجامع مع الشهوات، والذي علينا هو الوصول إلى الهدوء والطمأنينة ورباطة الجأش، وهي علامة الحكمة وسببها.

والطريق النبيل يتكون من الآراء الصائبة، والمقاصد السليمة، والحديث الحق، والسلوك المستقيم، وأسلوب الحياة الحكيم، والعقلية السامية، والتفكير الخالص، وعن طريق خلق هذا التوازن نصل إلى الخلاص من الشقاء الشامل الذي هو ثمرة الاشتهاء.

إجابات غير مقنعة

ومسألة الخلاص في رأي بوذا أجل شأنًا وأكثر أهمية من معرفة أمل الحياة والشر ووجود الله، وحينما كانت توجه إليه أسئلة عن الله كان يجيب إجابة غامضة، وفي بعض الأحايين غير مقنعة. سأله مرة أحد أتباعه قائلًا: "سيدي، هل هناك إله؟" فأجابه بوذا قائلًا: "أتراني قد قلت إن هناك إلهًا؟". فدهش السائل، وراجعه قائلًا: "إذن ليس هناك إله ياسيدي!" فسارع بوذا إلى الإجابة قائلًا: "أتراني قد قلت إنه ليس هناك!" وقد تتفق هذه الإجابة مع ما كان يكثر من ترديده على مسامع تلامذته، وهو قوله

"إذا كان هناك بيت قد اشتعلت فيه النيران، فهل تبدؤون بالبحث عن أصل النيران أو تحاولون إطفاءها؟".

وكان بوذا يشبه سقراط في كراهيته للتفكير فيما وراء الطبيعة، ويقول الأستاذ واديا البحاثة الهندي الحديث:"إن مسألة هل كان بوذا موجد دين أو صاحب فلسفة، من المسائل التي تتعارض فيها الآراء، وإنها تتوقف إلى حد كبير على مسالة ماذا نعني بالفلسفة وماذا نعني بالدين. فإذا كان ما نعني بالدين الإيمان بقوة أسمى منا، وعدد من العقائد التي تقبل بوصفها حقائق كشفت لنا، فإن من المحقق أن بوذا بهذا المعنى ليس موجد ديانة، ولو أن أتباعه في القرون التالية قد ألهوه، وقبلوا ما جاء به باعتباره حقائق لا سبيل إلى نقضها، وقد صارت البوذية ديانة، ولكن هذا لم يكن من عمل بوذا نفسه، وإنما كان من عمل أتباعه، وهو في الواقع كان يحاول أن يبشر بآرائه بطريقة منطقية، وباعتبارها قائمة على التفكير العقلي الخالص؛ ولذلك يعد في الواقع من أصحاب المذاهب الفلسفية.

ويرى الأستاذ واديا أنه لا يمكن أن يقوم دين بغير إله، وليس في حياة بوذا ولا في تعاليمه ما يدعو إلى تأليه، ولكن منطق الدين كان يستلزم أن تستدرك البوذية هذا النقص مادامت قد اعتبرت دينًا؛ ولذلك لم يجد فريق من أتباعه مناصًا من أن يسموا به إلى مرتبة الألوهية، كما في البوذية المعروفة باسم (بوذية مهايانا).

وقد مات بوذا سنة ٤٨٣ ق.م. وهو في عامه الثمانين، وحدث بعد موته خلاف بين أتباعه كاد يودي بالبوذية لولا ظهور الملك أسوكا، الذي بدأ يحكم معظم أجزاء الهند سنة ٢٧٢ ق.م. فقد قام في مناصرة البوذية بالدور الذي قام به الإمبراطور قسطنطين في مساندة المسيحية، وبذل مجهودًا عظيمًا في سبيلها، وشيد لها الأديرة وبنى باسمها المستشفيات، وأرسل مبشرين بالعقيدة البوذية إلى أجزاء الهند جميعًا وإلى جزيرة سيلان، ولم يكتفِ بذلك بل أرسل البعوث إلى سوريا ومصر واليونان، ولم يمضِ بعد وفاته إلا زمن قصير حتى غادرت بعوث المبشرين بلاد الهند إلى التبت والصين ومنغوليا واليابان؛ لنشر التعاليم البوذية.

الله عند كونفوشيوس

ولد كونفوشيوس (واسمه الحقيقي كونج شيو) في مملكة لو (واسمها الآن شانتونج) سنة ٥٥١ ق.م. وكان والده كونج في السبعين من عمره حينما ولد له ولده، ومات حين بلغ ابنه سن الثالثة، وكان كونفوشيوس يعمل بعد الفراغ من المدرسة ليساعد على إعالة والدته. ويقول عنه ول ديورانت: ولعله قد تعود في طفولته تلك الرزانة التي هي من خصائص كبار السن، والتي لازمته في كل خطوة خطاها طوال حياته، لكن مع هذا وجد متسعًا من الوقت يحذق فيه الرماية والموسيقى، وبلغ من شدة ولعه بالموسيقى أنه كان يستمع مرة إلى لحن مطرب، فتأثر به تأثرًا حمله على أن يمتنع عن أكل اللحوم، وظل ثلاثة أشهر لا يذوق فيها اللحم أبدًا، وقد

تزوج في التاسعة عشرة من عمره، ولكنه طلق زوجته وهو في الثالثة والعشرين، ويلوح أنه لم يتزين بعدها قط.

وفي الثانية والعشرين من عمره بدأ يشتغل بالتعليم. وعرف منذ مستهل شبابه بالحكمة والاستقامة، والبلاغة والفصاحة، وشجعه بعض الذين أعجبوا بمواهبه على أن يجعل من داره مدرسة يؤمها طلاب المعرفة. وكان يتقاضى من تلاميذه ما يستطيعون أداءه، ولم يشرع في تزويدهم بالحكمة المجردة، وإنما كان يختار موضوعات معينة، وبوجه خاص التاريخ والشعر وآداب اللياقة، وكان يعتقد اعتقادًا راسخًا أن للموسيقى تأثيرًا كبيرًا في صقل الأخلاق، وتهذيب الشخصية، وهو في هذا الاتجاه بشبه الفيلسوف الألماني المعروف أرثر شوبنهاور.

ولما كثر تلامذته بدأ يعظم تأثيره، وبعض الشبان الذين حضروا دروسه وتشيعوا بآرائه أسندت إليهم مناصب لها أهميتها. وفي سنة ٢١٨ ق.م. أبدى أحد وزراء لو –وهو على فراش الموت– رغبته في أن يلتحق ابنه بمدرسة كونفوشيوس، ومن تلك اللحظة أصبح كونفوشيوس معلم الأمراء.

ويؤكد تلاميذه أنه كان مبرأ من أربعة عيوب، كان لا يجادل أثناء المناقشة في عقله حكم سابق مقرر، ولا يتحكم في الناس ويفرض عليهم عقائده، ولم يكن عنيدًا ولا أنانيًا. وشعر برغبته في التنقل والسفر ليفسح آفاق تفكيره وينشر علمه وحكمته، وكانت أولى رحلاته الهامة إلى لوبانج

المعروفة الآن باسم هونان، وقد فتن فيها بالحفلات التي أقيمت في معابدها الفخمة، وكان يقيم في لويانج حينذاك الحكيم الصيني (لاوتزو)، وقد بلغ السابعة بعد الثمانين من عمره، ولما لقيه كونفوشيوس وجه إليه بعض الأسئلة عن التاريخ السابق وبعض الحكماء القدامى، فأجابه لاوتزو: إن الذين تسأل عنهم قد بليت عظامهم، واستحالت ترابًا، وحينما تدق ساعة الرجل العظيم يسمو إلى مرتبة القيادة، ولكن قبل أن يأتي زمنه تعيقه العقبات في كل ما يحاوله، ولقد سمعت أن التاجر الناجح يخفي بعناية وإحكام ثروته، ويعمل كأنه لا يملك شيئًا، وأن الرجل العظيم مع كثرة إنجازاته يكون بسيطًا في مظهره وعاداته، فتخلص من كبريائك ومن مطامعك الكثيرة، ومن عواطفك والمغالاة في أهدافك، وهذه نصيحتي لك.

فيلسوف النزعة الإنسانية

ويبدو أن كونفوشيوس أخذ هذه النصيحة مأخذ الجد، فلما عاد إلى تلامذته نقل إليهم الانطباعات التي تركها في نفسه الحكيم المتقدم في السن، قائلًا: "إني أعرف كيف يستطيع الطير أن يطير، وكيف تسبح الأسماك وكيف تجري الحيوانات، ولكن الذي يجرى يمكن أن يقع في الشبكة، والذي يسبح يمكن أن تصيده السنارة، والطائر يمكن أن يصيبه السهم، ولكن هناك التنين، إني لا أعرف كيف يرتقي الريح خلال السحب ويرتفع إلى السماء، ولقد رأيت اليوم لاوتزو ولا أقرنه إلا بالتنين". وهذه هي تحية التقدير التي قدمها فيلسوف النزعة الإنسانية كونفوشيوس إلى

رسول الصوفية الطبيعية، وهي محبة تنطوي على بيان الفرق بين الاتجاهين، الاتجاه الطبيعي واتجاه كونفوشيوس العملي إنساني.

وكان كونفوشيوس لا يميل بطبيعته إلى النزعة التصوفية، ولكنه كان يعرف قوة تأثيرها السحري على الكثيرين من الناس، ولم يكن ينكر وجود عالم روحي متسامٍ، وإنما كان يعطي الأولوية للحكومة الإنسانية وما فيه سعادة البشر ورفاهيتهم.

وكان في تعليمه وتفكيره يخضع للمنطق، ولا يطلب الحكمة عن طريق الشطحات الصوفية ونوبات التجلي، وإنما يلتمسها في أعمال الفكر والتأمل العقلي. ومن مأثور أقواله: "لقد قضيت اليوم كله دون أن أتناول طعامًا، وأمضيت الليل دون أن يغمض لي جفن؛ لكي أسترسل في التأمل، ولم يجد ذلك علي شيئًا". وكان حينما توجه إليه أسئلة عن أمور تتجاوز تجربة الإنسان المباشرة، يرد بإجابات أمعن في الصراحة من إجابات بوذا، وحينما سأله تلميذه تزولو عن واجبات الإنسان نحو أرواح الذين رحلوا إلى العالم الآخر، أجاب قائلًا:"مادمت غير قادر على أن تقوم بواجبك للأحياء، فكيف تستطيع أن تقوم بواجبك نحو الموتى؟". وسئل مرة في مناسبة أخرى عن طبيعة المرة فأجاب: "ما دمت لا تفهم الحياة فكيف تظن أنك تفهم الموت؟".

الحب والفضيلة والجمال

وفي سنة ٥٠١ ق.م. عين كونفوشيوس حاكمًا لمدينة شونج تي، وقد استطاع في مدى قصير أن يسمو بأحوالها الاجتماعية، وبلغت الأخلاق مستوى رفيعًا لم نصل إليه قبل ذلك، وبدا كأن العصر الذهبي قد أقبل وعمت الأمانة والاستقامة. وعجب الناس من الفضائل التي اشتملت عليها نفوسهم، ورأى الدوق صاحب المدينة –وكان اسمه تنج– أن يجعله وزيرًا للشؤون العامة. فقام بمشروعات جلبت الرخاء، وسر الأمير فوسع دائرة اختصاصه، وجعله رئيس الوزارة، وأحسن السياسية وأجاد تصريف الأمور وصار معبود الشعب.

وقد ساء هذا النجاح أمراء الحكومات المجاورة لولاية طو، ودبر وزير ماكر من وزراء تشي مكيدة للإيقاع بين (دوق لو) وكونفوشيوس، فأشار على (دوق تشي) أن يبعث إلى (دوق لو) بهدية فاخرة مكونة من ثمانين من الفتيات الحسان المغنيات وعشرين جوادًا، ولما علم كونفوشيوس بخبر الهدية أمر بإبقائها خارج العاصمة، ولكن أحد أتباع الدوق تسلل إلى المكان الذي حفظت فيه الهدية وأبلغ الدوق عنها، واستسلم الدوق للإغراء غير حافل بمعارضة كونفوشيوس، وحملت الفنيات المغنيات إلى القصر الملكي والبيت الحفلات الصاخبة، ووجد كونفوشيوس أنه لا يستطيع أن يصنع شيئًا، فترك وظيفته وعاد إلى حياة التنقل، وعلق على هذه التجربة قائلًا: "لم أجد قط من يحب الفضيلة كما يحب الجمال".

وقد ظل في جولاته ثلاث عشرة سنة تعرض فيها لأخطار عدة، ووجه إليه الكثير من قوارص النقد والتجريح والسخرية، ولكنه ظل برغم ذلك كله محتفظًا برباطة جأشه وحس الفكاهة الذي كان ملازمًا له، ولم تثنه تقلبات الحظ وعثراته عن محاولة أن يكون نافعًا لإخوانه البشر، وكان دائمًا على أتم الأهبة ليقدم جليل خدماته لمن يطلبها، ولكنه كان يرفض المساومة على مبادئه.

وقد قال أحد النساك المسنين لتزولو –من أتباع كونفوشيوس– أليس الأفضل أن تتبع هؤلاء الذين أعرضوا عن الدنيا برمتها، بدلًا من أن تتبع هذا الذي يتنقل من ولاية إلى ولاية أخرى؟ وكانت تبدو هذه الملاحظة نصيحة مناسبة لكونفوشيوس، ولكنه كان يرى أن اليأس هو أعظم الآثام، ولم يشعر بأن تجولاته عديمة الفائدة.

وكان كثيرون من حكام الولايات في الصين يرون في كونفوشيوس ما يهدد سلطتهم، وينال من مكانتهم، ويحول بينهم وبين الإفادة من استغلال الاستبداد والاستمتاع بالسلطة المطلقة، ولكن لم يجترئ مع ذلك أي حاكم على أن يطيح برأسه، واكتفوا بتعريضه للسخرية والتناقص والزراية، وقد لقي في النهاية نوعًا من التقدير، فقد مضى زمن على وفاة الدوق تنج الذي قضى نحبه صريع الانهماك في الملذات، وخلفه على عرش (لو)، الدوق جاي وأرسل هذا الدوق بعض الهدايا إلى كونفوشيوس الذي كان في التاسعة بعد الستين من عمره، واستدعاه ليعود إلى وطنه، وأشاعت هذه

الدعوة السرور في نفس كونفوشيوس، واستجاب لها. واكتفى هذه المرة بتقديم النصائح ودراسة المشكلات.

وقضى نحبه بعد أن أمضى خمس سنوات في الدراسة وكتب تاريخ قومه، ومات في الثالثة بعد السبعين من عمره، وتقول الرواية إن تلميذه الوفي تزي كونج ظل ملازمًا قبره مدة ست سنوات، وفي كتابه المسمى (الحوار) الكثير من الأحاديث التي تنم عن شخصيته واتجاه تفكيره، وهي ترينا أنه كان جم العطف على الذين يشقون في هذه الحياة، ولكنه كان يميل إلى أن يعبر عن عواطفه بطريقة عملية. حينما أصيب أحد أصدقائه بكارثة أمر بإطلاق أحد خيول عربته وأهداه إلى أسرته المنكوبة، وقال: "إني أكره فكرة ألا يتبع دموعي عطف عملي"، وكان هذا ديدنه في شتى المواقف والحالات.

وقد حاول الإمبراطور شيه هيوانج ني (٢١١-٢٢١ ق.م.) إثبات أن التاريخ يبدأ به، وكره أن يكون لتعاليم كونفوشيوس أثرها في نفوس الصينيين، فأمر بحرق الكتب. وخاطر كثير من العلماء الصينيين بالاحتفاظ بكتبه، ولكن بعد موته حدث رد فعل فقد جعل الإمبراطور (وي تي) الذي خلفه المبادئ الكونفوشيوسية ديانة الدولة في سنة ١٣٦ ق.م.

الحياة بعد الموت

ويقول البحاثة بريدبل كيث في الفصل الذي كتبه لتاريخ العالم عن البوذية والكونفوشيوسية: كان كونفوشيوس يعتقد اعتقادًا قويًا بضرورة

الحفلات الدينية، ومع ذلك فإن عقيدته لم يكن يبدو فيها أثر للشعور الديني. ولعل من الواضح أن الصينيين انتهوا إلى الاعتقاد بأن السماء شخصية إلهية حقيقية، وأنها صاحبة السيادة في العالم الأعلى، وأنها القوة العليا التي تهدي الناس في مصيرهم، وتكلأ هذا المصير.

ولكننا نجد أن كونفوشيوس يقدم للآلهة الولاء الواجب، في حين نصيبهم كل الإقصاء من وصاياه الأخلاقية. وهو في الواقع لا يعيرهم التفاته من هذه الناحية، كأنهم الآلهة الغريبة الأطوار المستخفة بالآداب التي خلفها خيال اليونان الشعري. وهو لا يتجاهلها فحسب، بل هو على ما يبدو قد أظهر نحوها شكًا عميقًا، وهو يرى من الحكمة للإنسان أن يعرف الحدود الحقيقية لمعرفته، وأن يقدر مدى جهله، إذ كيف يستطيع الإنسان أن يعرف شيئًا عن السماء في حين أنه من الصعب عليه أن يعرف ما يحدث في الأرض؟، وكان على هذا النحو يتحاشى في أحاديثه التعرض لأعمال الأرواح؛ لأنه كان يرى أن أوهامهم لا تغني شيئًا في بناء الأخلاق، أو هي لا تغني إلا شيئًا قليلاً.

وكان يرفض الإجابة عن الأسئلة التي توجه إليه عن الحياة بعد الموت، ومن أقواله: إذا قلت لكم أن الموتى يعون ويشعرون فإن الأبناء الذين يحبونهم سيقضون على أنفسهم لكي يجتمعوا بآبائهم الموتى، وإذا قلت لكم أنهم لا يعون ولا يشعرون، فإن الأبناء العاصين لن يقيموا حتى على دفن موتاهم، وهذا هو موت العقلية السليمة التي يمكننا أن نتبين

فيها عدم الاعتقاد الحقيقي في استمرار وجود الإنسان بعد انقضاء حياته القصيرة.

وقد عني كونفوشيوس بفضيلتين عدهما أهم الفضائل، والفضيلة الأولى في رأيه في السلوك السليم أو التزام مراعاة قواعد الخلق القويم، ويشمل ذلك الأدب وآداب اللياقة، والشعائر الدينية، والمبادئ الأخلاقية، والفضيلة الثانية هي حب الغير، وقد ضمنها قوله: لا تفعل بالغير ما لا تحب أن يفعلوه بك. وقد أضاف كونفوشيوس إلى فضيلتي السلوك السليم والحب فضائل أخرى، وبخاصة الولاء والأمانة والحكمة والاستقامة والحياة والوداعة والتواضع.

ويقول الأستاذ هومر هـ. دبس، وهو أحد المتخصصين في دراسة كونفوشيوس: "لسنا نعرف هل كان كونفوشيوس يؤمن بوجود الآلهة والأرواح الشائعة، وإنما نعرف أنه كان في الأغلب يعتقد أنها لم تكن سوى صنائع للإله الأعلى وهو السماء". فكان كونفوشيوس يقول: إذا كان الإنسان قد أخطأ في حق السماء فلن ينفي التوصل لأي إله آخر لمساعدته، ولا يوجد إذن سوى إله واحد في الكون له قدرة، ففي عصر الاعتقاد بتعدد الآلهة كان كونفوشيوس يؤمن بإله واحد، وهذا الإله الأسمى كان يعتقد كونفوشيوس أنه قد أرسله ليعلم الناس، وكان يعتقد أن الله سيحميه لأنه في حاجة إليه، ففي عصر الاعتقاد بتعدد الآلهة كان موحدًا.

والواقع أن بوذا وكونفوشيوس لم يكونا صريحين في الحديث عن وجود الله أو عدم وجوده، وكانا حين يواجهان بسؤال في هذا الموضوع يجيبان إجابة يشوبها الغموض، وكانت عناية بوذا واهتمامه متجهين إلى تخليص الإنسان من ربقة الشقاء وقيود تكرار الحياة، وكان كونفوشيوس معنيًا بتوضيح معالم الطريق إلى الحياة السعيدة، التي يتغلب فيها الإنسان على مشكلات المجتمع ومتاعب الحياة، وكلاهما كان لا يميل إلى التفكير فيما وراء الطبيعة.

ويرى بعض المفكرين أنه لا يمكن أن يقوم دين إلا على أساس الاعتقاد بوجود إله يثيب المحسن ويعاقب المسيء، ولذلك رأى فريق من المفكرين أن البوذية والكونفوشيوسية أقرب إلى المذاهب الفلسفية والأنماط الأخلاقية وأشبه بها. وأن بوذا وكونفوشيوس من الهداة المصلحين والمفكرين المرشدين، وليسا من طبقة الأنبياء أصحاب الرسالات السماوية وحملة الوحي الإلهي.

آلهة من صنع الاستعمار

د. محمد أحمد عوف

القاديانية

كانت شبه القارة الهندية إبان أواخر القرن الماضي تعاني من نير الاستعمار البريطاني، فحاولت إنجلترا بكل الوسائل الفكرية والتبشيرية والمادية تأمين الوجود البريطاني في بلاد الهند، ووسط هذا الوجود الاستعمارى برزت (القاديانية) عام ١٨٨٤م، وتزعم هذه الدعوة (مبرزا غلام أحمد) في بلدة (قاديان)، بإقليم البنجاب بالأراضي الهندية، حيث روى قائلًا: دخلت على الرسول (ﷺ) في حجرة، فسألني قائلًا: ما هذا بيمينك يا أحمد؟ فنظرت، لماذا بكتاب بيدي اليمنى، وخطر بقلبي أنه من مصنفاتي، فقلت يا رسول الله اسمه (قطب)، فقال: "أرني كتابك القطبي"، وبينما أنا في هذا الخيال إذ الميت جاءني حيًا وهو يسعى، وقام وراء ظهري وفيه ضعف كأنه من الجائعين، فألقى الله فى قلبي أن الميت هو الإسلام، وسيحييه الله على يدي بفيض روحانيته".

وقد نشأ غلام أحمد بين أحضان الإرساليات الانجليزية التي كانت موجودة في بلدة (سيالكوت) بالهند، وكانت شخصيته شخصية خيلائية Faranoid في كل تصرفاته، حيث كان يضفي هالة حوله بتصرفاته الشاذة، فتراه يقول أنه (المسيح الموعود) الذي بشر به الرسول في حديث نبوي،

وأن روح المسيح حلت فيه وأنه (أفاتار كراشن)Avatar krushn معبود الهندوس، وعلى هذا نجده يفسر لنا الصراع الذي سيقوم بين المسيح الموعود والمسيح الدجال بأنه صراع كلامي، والسلاح الذي سيشهره في وجه الدجال هو سلاح روحاني؛ لأن قوة المناهضين لدعوة (المسيح الموعود) سوف تذوب كما يذوب الملح في الماء.

ومما يؤكد فكرة (الخيلائية) لدى غلام أحمد أنه طالع الشعب الهندي بمقالة قال فيها أنه عثر في قرية (سرنجار) بولاية كشمير على قبر السيد المسيح حيث هرب من اضطهاد اليهود له، وأخذ يبشر فيها بالمسيحية والإنجيل، ومرة أخرى يدعي أن السيد (المسيح) مدفون في قبر الرسول(ﷺ).

وفسر غلام أحمد قصة (يأجوج ومأجوج) التي ذكرها القرآن تفسيرًا رمزيًا، فأطلق على المعسكر الشرقي (يأجوج)، وعلى المعسكر الغربي (مأجوج)، وبهذا القول أوجد غلام أحمد جوًا من المشاحنات والمنازعات الخلق فتنة بين المسلمين بالهند لينصرفوا عن قضية تحرير بلادهم.

تعاليم القاديانية

١. أعلن (غلام أحمد) ألا جهاد في الإسلام ولا تسفك الدماء، ولاسيما دماء الإنجليز. وعلى المسلمين أن يضحوا بأنفسهم لحماية الوجود البريطاني بينهم. فها هو ذا يقول في كتابه (تعاليم الإسلام): إن دينى الذي أبديه للناس مرة بعد مرة هو أن الاسلام ينقسم إلى

قسمين: الأول أن نطيع الله تعالى، والثاني أن نطيع الحكومة التي أقامت الأمن وأظلتنا بظلها وحمتنا من الظالمين، وهذه الحكومة في الحكومة البريطانية. وفسر غلام أحمد قوله تعالى: "أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ" بأن أولي الأمر هم الإنجليز، وقال: "إن أجهل الناس وأحقرهم وأبلههم ذلك المسلم الذي يحقد على هذه الحكومة البريطانية".

٢. كل مسلم لا يتبع (القاديانية) يعتبر كافرًا.

٣. لا تصح الصلاة للقاديانيين في مساجد المسلمين أو في جمع منهم، كما لا تجوز الصلاة على ميت مسلم أو دفنه في مقابر القاديانيين.

٤. لا يتزوج القادياني من مسلمة ولا تتزوج القاديانية من مسلم؛ لأن المسلمين كفرة في نظر القادياني.

٥. مُحَمَّد رسول الله لكن(خاتم النبيين)، حسب الفكر القاديانى، يقصد به (طابعهم) وليس آخرهم؛ لأن الرسول (ﷺ) معه (خاتم)، يختم به كل رسالة أتى بها الأنبياء. وعلى هذا يقول غلام أحمد أنه مبعوث الله وأنه نبي، وأن محمدًا ختم رسالته بخاتم الأنبياء.

٦. القاديانية يطلقون على غلام أحمد المسيح الموعود (عليه السلام)، والدعاء له كالآتي: "اللهم صلِّ على مُحَمَّد وعلى آل مُحَمَّد وعلى عبدك (المسيح الموعود)، وبارك وسلم إنك حميد مجيد".

٧. يقول غلام أحمد عن نفسه أنه كليم الله، ومحدد الله، ويقول أن الله قال له: "إني فلقتك من جوهر عيسى، وإنك وعيسى من جوهر واحد وكشيء واحد"، وقال في كتاب (الاستغناء) إن الله خاطبه بقوله له "أنت مني بمنزلة ولدي".

٨. خص غلام أحمد نفسه بالكينونة قائلًا إن الله قال له: "إذا أردت شيئًا أن تقول له كن فيكون"، لأن ما أعطاه الله لكل نبي واحدًا واحدًا أعطاه لي جميعًا، ويقصد بهذا الوصف أنه يبز الأنبياء جميعهم.

٩. يحج القاديانيون إلى بلدة (قاديان) حيث يطلقون على قبر داعيتهم بها (مقر النبي العظيم)، وهذا القبر حسب المفهوم القادياني يفوق في قدسيته الحج إلى مكة.

القاديانية المعاصرة

بعد موت غلام أحمد انقسمت القاديانية إلى جناحين: أولًا جماعة (القاديانية)، وهذه تعتبر من الغلاة؛ لأنها تطلق على (غلام أحمد) النبي (المسيح الموعود)، وتتهم كل مسلم لا يؤمن بتعاليم القاديانية بالكفر.

وثانيهما: جماعة (الأحمدية) أو جماعة (لاهور)، وهذه الجماعة تعتبر غلام أحمد مجددًا للإسلام. لكن (مولاي مُحَمَّد علي) وصفه بأنه كليم الله في تقديمه لكتاب (تعاليم الإسلام)، الذي وضعه غلام أحمد وجماعة لاهور،

رغم أنها قللت من التعاليم القاديانية وألغت الكثير منها، إلا أنها تعتبر كل مسلم لا يؤمن بدعوتها فاسقًا، كما أنها عام ١٩٤٠م حاولت الزج بطالبين في كلية أصول الدين بالأزهر الشريف، لكنهما طردا بأمر من شيخ الجامع الأزهر عقب محاولتهما نشر كتب عن الأحمدية، واعتبرتها مشيخة الأزهر كافرين.

وللقاديانية عدة مراكز يطلقون عليها المراكز الإسلامية الأحمدية، وهي منبثة في أرجاء العالم رافعة شعار الإسلام، وتمارس الدعوة للتبشير القادياني، فلها مراكز في هامبورج بألمانيا، ولندن ومدريد وزيوريخ، وواشنطن ونيويورك وشيكاغو وسان فرانسيسكو، وسيراليون وساحل الذهب ونيجيريا ونيروبي وتابور، وعدن ولبنان، وسيلان وبورما وماليزيا وإندونيسيا والفلبين وسنغافورة.

البهائية

طلع (علي مُحَمَّد) عام ١٨٨٤م بمقالة ادعى فيها أنه (الباب)، أي الباب الموصل إلى الله، وبعد أن أعدم انقسمت الدعوة البابية إلى ثلاثة أحزاب هي:

١. جماعة البابية الخلص، التي التزمت بالخط البابي الملتزم بالبيان (كتابها المقدس).

٢. جماعة البابية الأزلية، وهي التي تزعمها بعد الباب (صبح أزل)، الذي وضع لأتباعه كتابًا مقدسًا قلد فيه القرآن في ترتيب سوره وآياته وأسلوبه، لكنه أخفق.

٣. جماعة البهائية، وهي الدعوة التي ظهر بها (ميرزا حسين علي) عام ١٨٩٣م، حيث أعلن أنه البهاء، وأنه مظهر الله الأكمل، وجماله البهي الأبهى، وأن الرسل الذين سبقوا ظهوره بما فيهم (الباب) أتوا جميعهم يبشرون بمجيئه. وهو الإله لا إله إلا هو ولا قيامة ولا آخرة إلا بدايته ولا دين إلا دينه.

ودبت المشاحنات بين هذه الأحزاب الثلاثة، لدرجة الهجوم السافر وتكفير كل حزب للآخر، ما جعل الخليفة العثماني يأمر بطرد كل البابيين والبهائيين من العراق وإحضارهم لتركيا، حيث عاش الأزليون والبهائيون في منطقة (أدرنة) التي كانت معقلًا يهوديًاومركزًا للصهيونية العالمية.

وأوعز اليهود إلى سلطان تركيا بان ينفي الأزليين إلى قبرص والبهائيين إلى عكا بفلسطين فنجد (البهاء) يأمر اتباعه وهم معه في هذه المنطقة بأن يكفوا عن الجهاد للتمهيد للوجود الاستعماري الصهيوني، وهذا يبث في النفوس الخنوع والخضوع، كما أباح الربا ليعطي فرصة للمرابين من اليهود بأن يتسلطوا على الاقتصاد الفلسطيني، والسيطرة عليه لاستغلال الفلسطينيين.

وكان (البهاء) يرى في الأسواق سائرًا وعلى وجهه برقع، ليخفي بهاءه المصطنع عن الأعين، فلا يحق لشخص رؤية بهائه الذي لاتدركه الأبصار!

ولما مات (البهاء) دفن في قبره (الأقدس) بعكا، ويتجه إليه البهائيون في حجهم وصلاتهم كل يوم، وهذا تخطيط لجعل كل البشر يتجهون بدعوتهم إلى إسرائيل، تحقيقا لما جاء في بروتوكولات حكماء صهيون.

وخلف (عباس أفندي) أباه وأطلق على نفسه لقب (عبد البهاء). وكان يسير في شوارع القدس مرتديًا زيًا كهنوتيًا شاذًا يلفت به الأنظار، وكان يضع على رأسه تاجًا إشارة إلى تملكه للعالم.

و(عبد البهاء) كان له دوره البارز في تاريخ الحركة البهائية، حيث طور تعاليمها لتلائم التفكير الغربي، واستقى من اليهودية تعاليمها،

واستعان بالعهد القديم وأحبار اليهود الذين أمدوه بالمعلومات التي بثها في نطاق البهائية.

وفي عام ١٩١٢م سافر (عبد البهاء) إلى أمريكا، ومكث هناك تسعة أسابيع زار فيها الجامعات الأمريكية، وهللت له صحافة الولايات المتحدة، ثم زار بعدها باريس ولندن وألمانيا والنمسا، ولما نزلت القوات البريطانية فلسطين هلل لها (عبد البهاء) قائلًا: "إن الله خلص فلسطين من أيدي العرب لتعود إلى أصحابها" يقصد الصهاينة، وزاره الجنرال (اللينبي) وقدم له وسام الإمبراطورية البريطانية من طبقة وسير، في احتفال مهيب لإضفاء هالة حول الداعية البهائي.

وبعد (عبد البهاء) خلفه، شوقي أفندي رباني، الذي أطلق على نفسه (ولي أمر الله)، ولما سافر إلى بريطانيا داهمته أزمة قلبية قضت عليه، وواجه البهائيون مشكلة نقل جثمانه؛ لأن عقيدتهم تحرم نقل الميت أكثر من مدة ساعة زمن، فاضطر البهائيون لدفنه في صندوق وضعوه في مقبرة خاصة قرب لندن، وهي الآن مزار للبهائيين.

وللآن لم يتولَ زعامة البهائية سوى مجلس مشكل في إسرائيل ومقره حيفا، حيث يشرف على شؤون الطائفة البهائية في العالم، وتطبع كتبها لدى الحكومة الإسرائيلية التي تمدها بالأموال والمعونات.

التعاليم البهائية

١. البهاء هو مظهر الله مجسدًا على الأرض، وهو إله الخلق حسب مفهوم البهائيين.

٢. الصلاة ثلاث صلوات: حين الزوال، وفي البكور، والآصال.

القاديانية والبهائية

وتشمل الصلوات الكبرى والوسطى والصغرى، والصلاة فردية ولا توجد صلاة جماعة سوى الصلاة على الميت، ويقول البهائي في صلاته الكبرى: "يا إله الأسماء وفاطر السماء أسألك بمطالع غيبك العلي الأبهى بأن تجعل صلاتي نارًا لتحرق حجباتي التي منعتني عن مشاهدة جمالك، ونورًا يدلني إلى بحر وصالك"، ثم يقول "الله أبهى" في تكبيره.

وفي الصلاة الوسطى يقول البهائى: "شهد الله (البهاء) أنه لا اله إلا هو (أي البهاء) له الأمر والخلق، قد أظهر مشرق الظهور ومكلم الطور الذي به أنار الأفق الأعلى ونطقت سورة المنتهى، وارتفع النداء بين الأرض والسماء، فقد أتى المالك الملك والملكوت والعزة والجبروت، هو مولى الورى ومالك العرش والثرى". وفي الركوع يقول: "سبحانك عن ذكري وذكر دوني، ووصفي وصف من في السموات والأرضين".

وفي الصلاة الصغرى يقول البهائي: "أشهد يا إلهي بأنك خلقتني لعرفانك وعبادتك، أشهد في هذا الحين بعجزي وقوتك، وضعفي

واقتدارك، وفقري وغنائك، لا إله إلا أنت المهيمن القيوم". والصلاة على الميت يكبر ست تكبيرات يقال فيها "الله أبهى"، وهناك صلاة على الميت الذَّكَر يقال فيها: "يا إلهي هذا عبدك وابن عبدك الذي آمن بك وبآياتك، وتوجه إليك منقطعًا عن سواك، إنك أنت أرحم الراحمين". والميت الأنثى يقال عليها في الصلاة: "يا إلهي هذه أمتك وابنة أمتك التي آمنت بك وبآياتك، وتوجهت إليك منقطعة عن سواك، إنك أرحم الراحمين".

٣. والحج مقصور على الرجال دون النساء، وهو التوجه إلى (القدس) المقام المقدس في عكا بإسرائيل، أو إلى بيت بالكرخ في العراق حيث كان ينزل البهاء إبان محنته، وهذا البيت رغم أنه حول إلى مسجد (الحسينية) إلا أن البهائيين بعتبرونه كعبتهم.

٤. الزواج لا يتعدى زواج الاثنتين، ولا يمكن أن تتعدي الخطبة ٩٥ يومًا، ولا تتجاوز المدة بين العقد والزفاف اليوم الواحد، ويستحسن البهائيون الزواج من الأباعد، ويجوز الزواج دون شهود أو عقد. وصيغة العقد أن يقول الرجل: "إنا لله راضون"، وتقول المرأة" إنا لله راضيات".

٥. أماكن العبادة يطلق عليها البهائيون المحافل البهائية، وهذه المحافل منبثة في معظم بلاد العالم في طهران، وفي بغداد (ألغيت أخيرًا)، واستانبول ونيودلهي وكراتشي وجاكارتا، وطوكيو وكمالا ولندن وجنوب أفريقيا، وباريس وبون ونبنا ومدريد، وشيكاغو وفرانكفورت

وسيدني، وتونس وقطر وجواتيمالا، علاوة على بعض المحافل التي يطلق عليها (مشارق الأذكار).

٦. تدعو البهائية إلى فكرة الدين العالمي واللغة العالمية، وهذا تحقيق لأهداف بروتوكولات حكماء صهيون.

٧. الحرية يقول عنها البهاء في الأقدس (الكتاب المقدس لدى البهائيين): "إننا نرى بعض الناس أرادوا الحرية ويفتخرون بها أولئك في جهل مبين، إن الحرية تنتهي عواقبها إلى الفتنة التي لا تخمد أوارها". وفي هذا لا شك تمهيد للأذهان لعدم الجهاد ضد المستعمر في فلسطين.

٨. الأعياد البهائية هي عيد (النيروز)، وهو أصله عيد فارسي. وعيد الرضوان، وهو اليوم الذي أعلن في البهاء أنه مظهر الله، وعيد ولادة الباب، وعيد ولادة البهاء، وعيد إعلان دعوة الباب.

٩. والسنة البهائية ٣٦١ يومًا، وتضم ١٩ شهرًا بهائيًا كل شهر ١٩ يومًا، وهذه الأشهر هي شهر البهاء، وشهر الجلال، وشهر الجمال، وشهر العظمة، وشهر النور، وشهر الرحمة. وشهر الكلمات، وشهر الكمال، وشهر الأسماء، وشهر العزة، وشهر المشيئة، وشهر العلم، وشهر القدرة، وشهر القول، وشهر السائل وشهر الشرف، وشهر السلطان، وشهر الملك، وشهر العلاء.

١٠. الأسبوع سبعة أيام يطلق عليها: يوم السبت هو يوم الجلال، الأحد هو يوم الجمال، الاثنين هو يوم الكمال، الثلاثاء هو يوم النضال، الأربعاء هو يوم العدال، الخميس هو يوم الاستجلال، الجمعة هو يوم الاستقلال.

هذا عرض سريع لطائفتين ظهرتا بإفكهما في أحرج الفترات التاريخية التي مرت بالعالم الإسلامي، وكان هدفها تدعيم الوجود الاستعماري والصهيوني، وخلق الفتن بين المسلمين وتشكيكهم في عقائدهم.

لابد لكل مخلوق من خالق

د.مصطفى محمود

كان ذلك من زمن بعيد لست أذكره، ربما كنت أدرج من الثالثة عشرة إلى الرابعة عشرة وربما قبل ذلك، في مطالع المراهقة، حينما بدأت أتساءل في تمرد: تقولون إن الله خلق الدنيا لأنه لا بد لكل مخلوق من خالق، ولا بد لكل صنعة من صانع، ولا بد لكل موجود من موجد، صدقنا وآمنا، فلتقولوا لي إذن من خلق الله، أم أنه جاء بذاته؟! فإذا كان قد جاء بذاته وصحّ في تصوركم أن يتم هذا الأمر، فلماذا لا يصح في تصوركم أيضًا أن الدنيا جاءت بذاتها بلا خالق وينتهي الإشكال؟.

كنت أقول هذا فتصفر من حولي الوجوه، وتنطلق الألسن تمطرني باللعنات، وتتسابق إليّ اللكمات عن يمين وشمال، ويستغفر لي أصحاب القلوب التقية ويطلبون لي الهدى، ويتبرأ مني المتزمتون، ويجتمع حولي المتمردون، فنغرق معًا في جدل لا ينتهي إلا ليبدأ، ولا يبدأ إلا ليسترسل، وتغيب عني تلك الأيام الحقيقة الأولى وراء ذلك الجدل.

إن زهوي بعقلي الذي بدأ يتفتح وإعجابي بموهبة الكلام ومقارعة الحجج التي انفردت بها، كان هو الحافز دائمًا، وكان هو المشجع، وكان هو الدافع، وليس البحث عن الحقيقة ولا كشف الصواب.

لقد رفضت عبادة الله؛ لأني استغرقت في عبادة نفسي، وأعجبت بومضة النور التي بدأت تومض في فكري مع انفتاح الوعي وبداية الصحوة من مهد الطفولة.

كانت هذه هي الحالة النفسية وراء المشهد الجدلي الذي يتكرر كل يوم، وغابت عني أيضًا أصول المنطق وأنا أعالج المنطق، ولم أدرك أني أتناقض مع نفسي إذ كيف أعترف بالخالق ثم أقول: "ومن خلق الخالق؟" فأجعل منه مخلوقًا في الوقت الذي أسميه خالقًا، وهي السفسطة بعينها.

ثم إن القول بسبب أول للوجود يقتضي أن يكون هذا السبب واجب الوجود في ذاته، وليس معتمدًا ولا محتاجًا لغيره لكي يوجد، أما أن يكون السبب في حاجة إلى سبب فإن هذا يجعله واحدة من حلقات السببية ولا يجعل منه سببًا أول.

هذه هي أبعاد القضية الفلسفية التي انتهت بأرسطو إلى القول بالسبب الأول والمحرك الأول للوجود. ولم تكن هذه الأبعاد واضحة في ذهني في ذلك الحين، ولم أكن قد عرفت بعد من هو أرسطو ولا ما هي القوانين الأولى للمنطق والجدل.

واحتاج الأمر إلى ثلاثين سنة من الغرق في الكتب، وآلاف الليالي من الخلوة والتأمل والحوار مع النفس، وإعادة النظر ثم إعادة النظر في إعادة النظر، ثمّ تقليب الفكر على كل وجه؛ لأقطع فيه الطريق الشائكة من (الله والإنسان) إلى (لغز الحياة) إلى (لغز الموت)، إلى ما أكتب من

كلمات على درب اليقين، لم يكن الأمر سهلًا؛ لأني لم أشأ أن آخذ الأمر مأخذًا سهلًا.

ولو أني أصغيت إلى صوت الفطرة وتركت البداهة تقودني، لأعفيت نفسي من عناء الجدل، ولقادتني الفطرة إلى الله، ولكنني جئت في زمن تعقد فيه كل شيء، وضعف صوت الفطرة حتى صار همسًا، وارتفع صوت العقل حتى صار لجاجة وغرورًا واعتدادًا.

والعقل معذور في إسرافه إذ يرى نفسه واقفًا على هرم هائل من المنجزات، وإذ يرى نفسه مانحًا للحضارة بما فيها من صناعة وكهرباء وصواريخ وطائرات وغواصات، وإذ يرى نفسه قد اقتحم البر والبحر والجو والماء وما تحت الماء، فتصور نفسه القادر على كل شيء، وزج نفسه في كل شيء، وأقام نفسه حاكمًا على ما يعلم وما لا يعلم.

وغرقت في مكتبة البلدية بطنطا وأنا صبي أقرأ لشبلي شميل وسلامة موسى، وأتعرف على فرويد وداروين، وشغفت بالكيمياء والطبيعة والبيولوجيا، وكان لي معمل صغير في غرفتي أحضر فيه غاز ثاني أكسيد الكربون وثاني أكسيد الكبريت، وأقتل الصراصير بالكلور وأشرّح فيه الضفادع، وكانت الصيحة التي غمرت العالم هي، العلم، العلم، العلم، ولا شيء غير العلم!

النظرة الموضوعية هي الطريق

لنرفض الغيبيات ولنكف عن إطلاق البخور وترديد الخرافات. من يعطينا دبابات وطائرات ويأخذ منا الأديان والعبادات؟ وكان ما يصلنا من أنباء العلم الغربي باهرًا يخطف أبصارنا، وكنا نأخذ عن الغرب كل شيء، الكتب والدواء والملابس والمنسوجات والقاطرات والسيارات، وحتى الأطعمة المعلبة، حتى قلم الرصاص والدبوس والإبرة، حتى نظم التعليم وقوالب التأليف الأدبي من قصة ومسرحية ورواية، حتى ورق الصحف.

وحول أبطال الغرب وعبقرياته كنا ننسج أحلامنا ومثلنا العليا، حول باستير وماركوني ورونتجن وأديسون، وحول نابليون وإبراهام لنكولن، وكرستوفر كولمبس وماجلان. كان الغرب هو التقدم، وكان الشرق العربي هو التخلف والضعف والتخاذل والانهيار تحت أقدام الإستعمار، وكان طبيعيًّا أن نتصور أن كل ما يأتينا من الغرب هو النور والحق، وهو السبيل إلى القوة والخلاص.

ودخلت كلية الطب لأتلقى العلوم بلغة إنجليزية، وأدرس التشريح في مراجع إنجليزية، وأتكلم مع أستاذي في المشفى باللغة الإنجليزية؛ ليس لأن إنجلترا كانت تحتل القناة، لكن لسبب آخر مشروع وعادل، هو أن علم الطب الحديث كان صناعة غربية تمامًا، وما بدأه العرب في هذه العلوم أيام ابن سينا، كان مجرد أوليّات لا تفي بحاجات العصر.

وقد التقط علماء الغرب الخيط من حيث انتهى ابن سينا والباحثون العرب، ثم استأنفوا الطريق بإمكانيات متطورة ومعامل ومختبرات وملايين الجنيهات المرصودة للبحث، فسبقوا الأولين من العرب والفرس والعجم، وأقاموا صرح علم الطب الحديث والفسيولوجيا والتشريح والباثولوجيا وأصبحوا بحق مرجعًا.

وتعلمت مما تعلمت في كتب الطب النظرة العلمية، وأنه لا يصح إقامة حكم بدون حيثيات من الواقع وشواهد من الحس، وأن العلم يبدأ من المحسوس والمنظور والملموس، وأن العلم ذاته هو عملية جمع شواهد واستخراج قوانين، وما لا يقع تحت الحس فهو في النظرة العلمية غير موجود، وأن الغيب لا حساب له في الحكم العلمي.

بهذا العقل العلمي المادي البحت بدأت رحلتي في عالم العقيدة وبالرغم من هذه الأرضية المادية والانطلاق من المحسوسات الذي ينكر كل ما هو غيب، فإني لم أستطع أن أنفي أو أستبعد القوة الإلهية.

كان العلم يقدم صورة عن الكون بالغة الإحكام والانضباط، كل شيء من ورقة الشجر إلى جناح الفراشة إلى ذرة الرمل فيها تناسق ونظام وجمال، الكون كله مبني وفق هندسة وقوانين دقيقة.

وكل شيء يتحرك بحساب من الذرة المتناهية في الصغر إلى الفلك العظيم، إلى الشمس وكواكبها إلى المجرة الهائلة، التي يقول لنا الفلك إن فيها أكثر من ألف مليون مجرة.

كل هذا الوجود اللا متناهي من أصغر إلكترون إلى أعظم جرم سماوي، كنت أراه أشبه بمعزوفة متناسقة الأنغام مضبوطة التوزيع كل حركة فيها بمقدار، أشبه بالبدن المتكامل الذي فيه روح.

كان العلم يمدني بوسيلة أتصور بها الله بطريقة مادية، وفي هذه المرحلة تصورت أن الله هو الطاقة الباطنة في الكون، الذي تنظمه في منظومات جميلة من أحياء وجمادات وأراضٍ وسماوات، هو الحركة التي كشفها العلم في الذرة وفي البروتوبلازم وفي الأفلاك، هو الحيوية الخالقة الباطنة في كل شيء، أو بعبارة القديس توماس: "الفعل الخالص الذي ظل يتحول في الميكروب حتى أصبح إنسانًا، ومازال يتحول وسيظل يتحول إلى ما لا نهاية".

والوجود كان في تصوري لا محدودًا لا نهائيًا؛ إذ لا يمكن أن يحد الوجود إلا العدم، والعدم معدوم، ومن هنا يلزم منطقيًا أن يكون الوجود غير محدود ولا نهائي. ولا يصح أن نسأل من الذي خلق الكون؛ إذ إن السؤال يستتبع أن الكون كان معدومًا في البداية ثم وجد، وكيف يكون لمعدوم كيان؟! إن العدم معدوم في الزمان والمكان، وساقط في حساب الكلام، ولا يصح القول بأنه كان، وبهذا جعلت من الوجود حدثًا قديمًا أبديًا أزليًا ممتدًا في الزمان لا حدود له ولا نهاية. وأصبح الله في هذه النظرة هو الكل ونحن تجلياته. الله هو الوجود، والعدم قبله معدوم، هو الوجود المادي الممتد أزلًا وأبدًا بلا بدء وبلا نهاية.

وهكذا أقمت لنفسي نظرية تكتفي بالموجود، وترى أن الله هو الوجود، دون حاجة إلى افتراض الغيب والمغيبات، ودون حاجة إلى التماس اللا منظور، وبذلك وقعت في أسر فكرة وحدة الوجود الهندية وفلسفة سبينوزا، وفكرة برجسون عن الطاقة الباطنة الخلاّقة، وكلها فلسفات تبدأ من الأرض، من الحواس الخمس، ولا تعترف بالمغيبات، ووحدة الوجود الهندية تمضي إلى أكثر من ذلك، فتلغي الثنائية بين المخلوق والخالق، فكل المخلوقات في نظرها هي عيني الخالق.

وفي سفر اليوبانيشاد صلاة هندية قديمة تشرح هذا المعنى في أبيات رقيقة من الشعر، إن الإله براهما الذي يسكن قلب العالم يتحدث في همس قائلًا:

إذا ظن القاتل أنه قاتل

والمقتول أنه قتيل

فليسا يدريان ما خفي من أساليبي!

حيث أكون الصدر لمن يموت

والسلاح لمن يقتل

والجناح لمن يطير

وحيث أكون لمن يشك في وجودي

كل شيء حتى الشك نفسه

وحيث أكون أنا الواحد

وأنا الأشياء.

إنه إله يشبه النور الأبيض، واحد وبسيط، ولكنه يحتوى في داخله على ألوان الطيف السبعة، وعشت سنوات في هذا الضباب الهندي، وهذه الماريجوانا الصوفية، ومارست اليوجا وقرأتها في أصولها، وتلقيت تعاليمها على أيدي أساتذة هنود، وسيطرت عليّ فكرة التناسخ مدة طويلة، وظهرت روايات لي مثل (العنكبوت) و(الخروج من التابوت)، ثم بدأت أفيق على حالة من عدم الرضا وعدم الإقتناع.

واعترفت بيني وبين نفسي أن هذه الفكرة عن الله فيها الكثير من الخلط، ومرة أخرى كان العلم هو دليلي ومنقذي ومرشدي، عكوفي على العلم وعلى الشريحة الحية تحت الميكروسكوب قال لي شيئًا آخر.

وحدة الوجود الهندية كانت عبارة شعرية صوفية، ولكنها غير صادقة، والحقيقة المؤكدة التي يقولها العلم أن هناك وحدة في الخامة لا أكثر، وحدة في النسيج والسنن الأولية والقوانين، وحدة في المادة الأولية التي بني منها كل شيء، فكل الحياة من نبات وحيوان وإنسان بنيت من تواليف الكربون مع الآيدروجين والأكسجين، ولهذا تتحول كلها إلى فحم بالاحتراق، وكل صنوف الحياة تقوم على الخلية الواحدة ومضاعفاتها.

ومرة أخرى نتعلم من الفلك والكيمياء والعلوم النووية أن الكربون ذاته، وكذلك جميع العناصر المختلفة جاءت من طبخ عنصر واحد في باطن الأفران النجمية الهائلة هو الآيدروجين.

الآيدروجين يتحول في باطن الأفران النجمية إلى هليوم وكربون وسليكون وكوبالت ونيكل وحديد، إلى آخر قائمة العناصر، وذلك بتفكيكه وإعادة تركيبه في درجات حرارة وضغوط هائلة، وهذا يرد جميع صنوف الموجودات إلى خامة واحدة، إلى فتلة واحدة حريرية غزل منها الكون في تفصيلات وتصميمات وطرز مختلفة.

والخلاف بين صنف وصنف وبين مخلوق ومخلوق هو خلاف في العلاقات الكيفية والكمية، في المعادلة والشفرة التكوينية، لكن الخامة واحدة. وهذا سر الشعور بالنسب والقرابة والمصاهرة وصلة الرحم بين الإنسان والحيوان، وبين الوحش ومروضه، وبين الأنف التي تشم والوهرة العاطرة، وبين العين ومنظر الغروب الجميل.

هذا هو سر (الهارموني) والانسجام، إن كل الوجود أفراد أسرة واحدة من أب واحد، وهو أمر لا يستتبع أبدًا أن نقول إن الله هو الوجود، وأن الخالق هو المخلوق فهذا خلط صوفيّ غير وارد.

والأمر شبيه بحالة الناقد الذواقة الذي دخل معرضًا للرسم، فاكتشف وحدة فنية بين جميع اللوحات، واكتشف أنها جميعًا مرسومة على الخامة نفسها، وبذات المجموعة الواحدة من الألوان، وأكثر من هذا أن

أسلوب الرسم واحد، والنتيجة الطبيعية أن يقفز إلى ذهن الناقد أن خالق جميع هذه اللوحات واحد، وأن الرسّام هو بيكاسو أو شاجال أو موديلياني مثلًا.

فالوحدة بين الموجودات تعني وحدة خالقها، ولكنها لا تعني أبدًا أن هذه الموجدات هي ذاتها الخالق، ولا يقول الناقد أبدًا إن هذه الرسوم هي الرسّام، إن وحدة الوجود الهندية شطحة صوفيّة خرافية، وهي تبسيط وجداني لا يصدق عليه العلم ولا يرتاح إليه العقل.

وإنما تقول النظرة العلمية المتأملة لظواهر الخلق والمخلوقات، إن هناك وحدة بينها، وحدة أسلوب ووحدة قوانين ووحدة خامات، تعني جميعها أن خالقها واحد لم يشرك معه شريكًا يسمح بأسلوب غير أسلوبه.

وتقول لنا أيضًا إن هذا الخالق هو عقل كلي شامل ومحيط، يلهم مخلوقاته ويهديها في رحلة تطورها ويسلّحها بوسائل البقاء، فهو يخلق لبذور الأشجار الصحراوية أجنحةً لتستطيع أن تعبر الصحاري الجرداء؛ بحثًا عن ماء وعن ظروف إنبات مواتية.

وهو يزود بيضة البعوضة بكيسين للطفو لتطفو على الماء لحظة وضعها ولا تغرق، وما كان من الممكن للبعوضة أن تدرك قوانين أرشميدس للطفو فتصنع لبيضها تلك الأكياس، وإنما هو العقل الكلي الشامل المحيط الذي خلق، هو الذي يزود كل مخلوق بأسباب حياته، وهو خالق متعالٍ على مخلوقاته، يعلم ما لا تعلم، ويقدر على ما لا تقدر، ويرى ما لا ترى،

فهو واحد أحد قادر عالم محيط سميع بصير خبير، وهو متعالٍ يعطي الصفات ولا تحيط به صفات.

والصلة دائمًا معقودة بين هذا الخالق ومخلوقاته، فهو أقرب إليها من دمها الذي يجري فيها، وهو المبدع الذي عزف الإبداع هذه المعزوفة الكونية الرائعة، هو العادل الذي أحكم قوانينها وأقامها على نواميس دقيقة لا تخطئ، وهكذا قدم لي العلم الفكرة الإسلامية الكاملة عن الله.

أما القول بأزلية الوجود لأن العدم معدوم والوجود موجود، فهو جدل لفظي لا يقوم إلا على اللعب بالألفاظ، والعدم في واقع الأمر غير معدوم، وقيام العدم في التصور والفكر ينفي كونه معدومًا، والعدم هو على الأكثر نفي لما نعلم، ولكنه نفي مطلق مساوي للمحو المطلق. وفكرة العدم المطلق فرضية مثل فرضية الصفر الرياضي، ولا يصح الخلط بين الافتراض والواقع، ولا يصح تحميل الواقع فرضًا نظريًا، فنقول اعتسافًا إن العدم معدوم، ونعتبر أن هذا الكلام قضية وجودية نبني عليها أحكامًا في الواقع، هذا تناقض صريح وسفسطة جدلية، وبالمثل القول بأن الوجود موجود، هنا نفس الخلط، فالوجود تجريد ذهني والموجود واقع حسيّ.

وكلمة العدم وكلمة الوجود تجريدات ذهنية كالصفر واللانهاية، لا يصح أن نخلط بينها وبين الواقع الملموس المتعيّن، والكون الكائن المحدد أمام الحواس، ويقرر هذا القانون أن الحرارة تنتقل من الساخن إلى البارد، من الحرارة الأعلى إلى الحرارة الأدنى، حتى يتعادل المستويان فيتوقف التبادل الحراريّ.

ولو كان الكون أزليًا بدون ابتداء لكان التبادل الحراري قد توقف في تلك الآباد الطويلة المتاحة، وبالتالي لتوقفت كل صور الحياة، ولبردت النجوم وصارت بدرجة حرارة الصقيع، والخواء حولها، وانتهى كل شيء، إن هذا القانون هو ذاته دليل على أن الكون كان له بدء.

والقيامة الصغرى التي نراها حولنا في موت الحضارات وموت الأفراد، وموت النجوم وموت الحيوان والنبات، وتناهي اللحظات والحقب والدهور، هي لمحة أخرى تدلنا على القيامة الكبرى التي لا بد أن ينتهي إليها الكون.

إن العلم الحق لم يكن أبدًا مناقضًا للدين بل إنه دالٌ عليه مؤكد بمعناه، وإنما نصف العلم هو الذي يوقع العقل في الشبهة والشك، وبخاصة إن كان ذلك العقل مزهوًّا بنفسه معتدًّا بعقلانيته، وبخاصة إذا دارت المعركة في عصر يتصور فيه العقل أنه كل شيء، وإذا حاصرت الإنسان شواهد حضارة ماديّة صارخة تزأر فيها الطائرات وسفن الفضاء والأقمار الصناعيّة، هاتفةً كلّ لحظة: "أنا المادة، أنا كل شيء".

من كتاب (رحلتي من الشك إلى الإيمان)

اللّه، الدين، كان وما يزال عنصرًا جوهريًا فيها

نجيب محفوظ

تشهد حياة الإنسان منذ النشأة الأولى التي عرفها العلم والتاريخ بأن الدين كان وما يزال عنصرًا جوهريًا فيها، يقوم بدوره الجليل في صدر الإنسان وضميره، ويمتد أثره إلى ميدان المجتمع الفسيح فلا يدع ظاهرة من ظواهره إلا ويؤثر فيها ويضفي عليها من لونه، ولذلك كانت فكرة الله – وهي محور الدين وروحه– أكبر ما يثير الشغف ويغري بالاطلاع. وما من مفكر أو عالم إلا وقد تعرض لها وكان له عنها رأي أو اعتقاد، ولسنا نحاول الآن أن نسطر موضوعًا صوفيًا نأتي فيه على خوالج قلبنا وما نقدس وما نعبد، ولكنا نريد أن نعرض جوانب هذه الفكرة الموزعة بين المفكرين من مختلف المذاهب؛ لنرى ما قدر لها من المعتقدات والآراء.

وقد ذهب المفكرون في تقدير الله ثلاثة مذاهب، فمنهم من رآه بعين الفكر والعقل والمنطق، وهم جماعة الفلاسفة، ومنهم من عرض فكرته على المناهج العلمية مستعينًا بالتجربة والاستقراء، وهم علماء الاجتماع، ومنهم من بذل الجهد لبلوغ غايته بالقلب والشعور، وهم طائفة المتصوفين.

الله والفلسفة

الفلسفة تؤلف بين أجزاء الوجود وتضمها في وحدة منتظمة القوانين، وتضع على قمة هذه الوحدة الله، سواء اعتبرته خالقًا أو منظمًا مستقلًا عن الكون أو حالًا فيه. فلقد تعرضت فكرة الله من بادئ الأمر إلي فرضين جعلا من الفلاسفة طائفتين في العصرين القديم والحديث، أولهما وهو مذهب المؤلهة، يرى الله جوهرًا مستقلًا عن العالم، يسمو بذاته على ذاته، ويتميز بجوهره عن جوهره، ويعلو بماهيته على قوانينه، وثانيهما وهو مذهب الحلول يرى أن الله يحل في الكون ويمتزج به امتزاجًا يمتنع معه وجود خالق ومخلوق، قديم وحادث، فليس يوجد إلا جوهر واحد الأشياء أعراضه وأحواله.

ولنعرض عليك آراء بعض الفلاسفة القدماء من كلا المذهبين، فمن أتباع المؤلهة أفلاطون، والله عنده روح عاقلة، تدبر شؤون العالم وتسهر عليه، واضعة نصب عينيها المثال الأحسن، وهو نشر النظام والتناسق والجمال في كل مكان. ولكن أفلاطون أبقى في إلهه نقصين، فجعله منظمًا للوجود لا خالقًا له، ورضي أن يكون غير كامل القوة؛ لأن الشر لا يزول كله من العالم، ومحال أن يزول كله.

ومن عمداء هذا الرأي أرسطوطاليس، وكان يرى أن الوجود أزلي وأن الحركة أزلية، ولكن الحركة ليست علة ذاتها فلابد من وجود علة أولى هي علة كل حركة، وهي ذاتها غير متحركة، وهو ما يسميه بالمحرك الأول، وكل ما في هذه العلة كامل، وهي الله.

وماهية الله عقل خالص، ولكن ما عسى أن يكون موضوع هذا العقل؟ هل يكون الوجود؟ كلا؛ لأن الوجود ناقص وقد يوجد من الأشياء ما الجهل به خير من معرفته، فموضوعه أجل وأكمل، ألا وهو ذاته، فالله عقل يتأمل ذاته، أو هو كما يقول ابن سينا عقل وعاقل ومعقول.

والواجب ملاحظته هنا أنه ما دام الوجود أزليًا فإله أرسطوطاليس لم يخلقه، وهو إلى ذلك يجهله كما رأينا.

ونستطرد إلى مذهب الحلول وتمثله في القديم مدرستا الرواقية والإسكندرية. أما الرواقيون فيتصورون العالم كائنًا حيًا، ويجعلون له كبقية الأحياء موضعًا للتدبير أو روحًا وهي الله، تمتزج به وتكون وإياه شيئًا واحدًا، ولما كانت نزعة الرواقيين مادية، فقد جعلوا الله روحًا مادية أو نسمة نارية، وإن كانت مشبعة بالفكر.

وأما مدرسة الإسكندرية فقد ألف مؤسسها أفلوطين بين آراء أفلاطون وأرسطوطاليس والرواقية، فقال أن الله ثالوث؛ لأنه مكون من ثلاثة أوجه أبدية. فيوجد الواحد المطلق اللا نهائي الذي هو مبدأ كل شيء، والذي يعلو بذاته على كل شيء، ومن هذا الواحد يفيض العقل، وهو محتوى الأفكار ومجتمع المثل العليا كما تصورها أفلاطون. وماهية هذا العقل أن يتأمل ذاته، الرأي الذي يذكرنا برأي أرسطوطاليس، ومن العقل يفيض الروح، وهذه إذا تحركت أحدثت الزمان والمكان والطبيعة، وهذه تذكرنا بالروح الرواقية.

وهذه الفلسفة حلولية من حيث أنها لا ترى وجودًا لغير الله، والله لا يخلق الوجود ولكن الوجود يفيض عنه كما تصدر الحرارة عن النار، ولكنها من ناحية أخرى ليست كاملة الحلولية كحلولية الرواقية؛ لأن الله ليس مستغرقًا بأكمله في الوجود، وما تزال هنالك وجوه للتمييز بين تلك الأوجه الثلاثة. فإذا عرجنا إلى العصور الحديثة ألفينا تغيرًا ظاهرًا في فهم فكرة الله، يظهر أثره في مذهبي المؤلهة والحلولية. فعند المؤلهة نجد أن الله اتصف باللا نهاية، ففلاسفة هذا الرأي يرون أننا وإن استطعنا أن ندرك الله، إلا أننا نعجز العجز كله عن أن نحيط به، كما يرون أن تحديد صفات الله يأتي من قياس كمالاته العليا على مثال كمالاتنا الإنسانية الناقصة.

كما اتصف بالقدرة على الخلق، فالله القديم كان منظمًا، لا تتجاوز قدرته التنسيق والترتيب، أما الله الحديث فخالق بمعنى أنه يخلق –كما يقول سنت توماس– من العدم، ويحتاج إليه كل الوجود، ولكن التسليم بهاتين الصفتين يثير مسائل عسيرة الحل، فالتسليم لله بصفة اللا نهاية والأخذ بالاعتراض الذي مؤداه أن لا نهائية الله وكمالاته يجب ألا تتصور على مثال الصفات الإنسانية، يوقعنا في حيرة كبرى لغموض معنى الله، وإغلاق أذهاننا عن تصوره، فما هي ماهيته؟ وعلى أي مثال يمكن تصورها؟ وإذا كانت طبيعته بهذا الغموض، فكيف يمكن أن نضيف إليها أي صفة من الصفات إطلاقًا؟.

وأما مذهب الحلول فقد اتخذ أشكالًا كثيرة، نكتفي بعرض مذهب سبينوزا منها، ولعله أبهاها جميعًا. يعرف ذلك الفيلسوف الله بأنه كائن

مطلق اللا نهاية، أي أنه جوهر مكون من أعراض لا متناهية، كل منها يعبر عن ماهية لا نهائية أبدية، والجوهر هو ما يقوم بنفسه ويدرك بذاته دون حاجة إلى سواه، وعليه فالله هو الجوهر الأوحد، وهو يحوي في ذاته كل ما يوجد، فهو يمتد في أعراض لا متناهية العدد، لا نعرف منها سوى اثنين، الفكر والامتداد.

ولا نتصور أن هذا الفكر الذي نضيفه لله كفكرنا، مركب من عقل وإرادة مثلًا، وإلا كنا نتصور الله على مثال الإنسان، كذلك إضافة الامتداد إليه ليست تعني أنه جسماني، فهذا الامتداد هو الماهية التي لا تتجزأ، وأما بقية الأشياء الجزئية فليست إلا أحوالًا من تلك الأعراض الآلهة، فالنفوس أحوال من عرض الفكر، والأجسام أحوال من عرض الامتداد، وجميع ذلك هو الله. فجميع ما في الوجود من أجسام ونفوس هي أحوال من الامتداد والفكر، اللذين هما عرضان من أعراض الله اللا متناهية، فجسمك حال من عرض من أعراض الله، ونفسك حال من عرض من أعراض الله، وأنت –في النهاية– الله.

ومما يلاحظ أن الحلوليين لا يدعون مجالًا للخلق؛ لأن الله هو الموجود فقط، ولكن يبقى سؤال معضل، وهو كيف يمتد الجوهر إلى أعراض، والأعراض إلى أحوال؟ كيف آل جوهر الله إلى الأحوال التي أنا واحد منها؟.

هذان هما المذهبان اللذان يتنازعان على تفسير طبيعة الله، وهما ليسا كل ما يقال في الفلسفة الدينية، فقد يعترض معترض ويقول فلتكن هذه هي الآراء في الله، ولكن ما الدليل على وجوده؟ وبهذا السؤال ننتقل إلى مسألة أخرى هي البراهين على وجود الله، وعندنا ثلاثة أنواع من هذه البراهين:

١) براهين ميتافيزيقية تقوم على النظر العقلي البحت.

٢) براهين طبيعية تقوم على تأمل الوجود الخارجي.

٣) براهين أخلاقية تقوم على الإحساس بالعالم الأخلاقي.

فأول البراهين الميتافيزيقية البرهان الوجودي، وأول من لفت النظر إليه سنت أنسلم، ثم تبعه ديكارت فليبنتز، فالحلوليون، وهذا البرهان يبدأ من تعريف الله بالكمال المطلق، وهو ما يظن القائلون به أنه يوجد في العقل بالبداهة التي تمتنع على كل شك، ويستنتجون من هذا التعريف أن وجود الله (في الواقع) ضروري ويمكن وضعه على الشكل الآتي: الله هو الكائن المطلق الكمال، (وهذه حقيقة بديهية لا تحتاج إلى استدلال) الوجود كمال الله موجود لله، هو الكائن الوحيد الذي تستدعي ماهيته وجوده، أو كما يقول ديكارت ماهية الله تستدعي أن يكون موجودًا، كما أن ماهية المثلث تستدعي أن يكون مجموع زواياه = ٢ق.

ولو أننا فرضنا أن الكائن المطلق الكمال غير موجود في الواقع، لعني فرضنا أنه غير كامل، ولوقع التناقض الملموس. والحق أن تصور كائن

كامل شيء، وفرض وجوده في الواقع شئ آخر. إذ كيف يجوز أن نتجاوز مجرد التصور العقلي إلى تقرير وجود حقيقي.

وقد يمكن التسليم بمثل هذا الدليل إذا أمكن تصديق فلسفة أفلاطون الواقعية، التي تجعل للمثل العليا العقلية حقيقة واقعية في عالم آخر، هو عالم المثال. فالفكرة العقلية المجردة لا في هذه الفلسفة حقيقة واقعية لا شك فيها. ويوجد برهان آخر ينحو نحو البرهان الوجودي من حيث اعتماده على العقل، ولكنه يميل نوعًا إلى المنهج التجريبي، وواضعه ديكارت، فهو يقول أنه يجد في عقله فكرة عن اللا تناهي، وتساءل من أين يمكن أن تأتي لعقله هذه الفكرة؟

إما أن تأتيه عن العالم الخارجي أو من ذاته، ولكن ليس في العالم الخارجي شيء لا متناهٍ، والعقل ذاته متناهٍ محدود، فلا يستطيع أن يبدع اللا متناهي، وإذا ثبت أنها ليست من إحدى هاتين الناحيتين فلا بد أن الذي خلقها في عقله كائن لا متناهٍ، أو هو الله نفسه، تركها في العقل الإنساني كأثر للصانع فيما صنع.

والبراهين الطبيعية تقوم على التجربة والمشاهدة المحسوسة، وقد ميز كانط منها نوعين، واحد يعتبر العالم ككل واحد، وآخر يتوجه بملاحظته إلى حالة من أحوال الوجود مثل النظام، ثم يصعد منها مهتديًا بقوانين السببية حتى يبلغ الله، والأول هو برهان فلاسفة المدرسين، وفحواه أن العالم في مجموعه ممكن الوجود، أي أنه من الممكن أن يوجد ومن الممكن ألا يوجد،

وليس به من ضرورة توجب أن يكون موجودًا أو تمنع تصور عدم وجوده، ومن كان هذا شأنه فهو لا بد أن أتى عليه دهر لم يكن موجودًا، فلو لم يكن يوجد كائن واجب الوجود وقادر على إيجاد غيره، لما وجد هذا الوجود الممكن.

ويبدو هذا الدليل مقنعًا؛ لأنه يعتمد على التجربة والإحساس، ولكن كانط يقف أمام فرض وجود الخالق الموجد لذاته الواجب الوجود وقفة التردد والشك؛ لأنه فكرة مجردة لا تمت إلى التجربة بصلة من الصلات. والثاني يبدأ من مشاهدة نظام الكون العجيب، الذي يدل في كل خطوة من خطواته على غائية ظاهرة.

ولما كانت الغاية قرينة العقل؛ لأنه هو الذي يقدر ويدبر، فلا بد أن يكون للكون علة عاقلة. ولكن مشاهدتنا هذه لا تكفي للحكم على وجود إله كامل لا متناهٍ، فتجربتنا محدودة وما تعرفنا من غايات الطبيعة ونظامها محدود بها، فهو لا يساوي الاستدلال على إله كامل لا متناهٍ. وأما البرهان الأخلاقي فيعتمد على وقائع خلقية وظاهرات نفسية، ومؤداه أن الشعور الأخلاقي والتمييز بين معاني الخير والشر وحساسية الضمير تشير جميعها إلى وجود إله مشرع، يفسر وجوده تلك المشاعر السامية التي تختلج في الوجدان، والتي لا يمكن أن تصدر إلا عن مثله، وهو ليس برهانًا بمعناه المنطقي، ولكنه اعتقاد قلبي جدير باحترام العقل النظري، وإن كان بعيدًا عن ميدانه.

هذا استعراض لفروض الفلسفة عن فكرة الله، من حيث طبيعته ووجوه الاستدلال عليه، أو هو ذكر لجهد العقل المجرد في محاولاته لمعرفة الله، وفي فرصة أخرى نأتي على ذكر آراء الاجتماعيين والصوفيين.

القاهرة ١٩٣٦

في مسألة وجود الله

السيد محمود أبو الفيض المنوفي

إن وجود الله أيها السادة ظاهر في أفعاله ظهور الشمس في رابعة النهار، بل إن وجود الشمس نفسها من بعض آثار أعماله المؤثرة وصنائع قدرته، التي تشهدون كل يوم آثارها بأنفسكم، وتقع في محيطها خبراتكم وتجاربكم، بيد أنكم مع ذلك لم تعلموا بعد حقائق هذا الوجود إلا مقدارًا محدودًا وظاهريًا، لا يقاسيه سوى ضآلة عالمنا الأرضي بالنسبة للعوالم الأخرى التي لا تحصى، والتي تسبح في فضاء ملك الله!

على أن ما نهدف إليه تشهد به كشوف العالم الطبيعي المحدثة وتقره، وإلا فمن منكم قد علم سر الحياة أو سر القوة أو كنه الطاقة، وتصرف الذرة في عناصر الطبيعة ومركباتها؟ أو ما حدود الكون مثلًا؟ وما إلى ذلك، أو على الأقل ما سيكشفه العلم في الغد من الحقائق، التي قد تجعل نظرياتكم العلمية الحاضرة نسيًا منسيًا.

فهل من مجيب يا ترى؟ وهل من جواب؟

وإذا كنتم لا تملكون من جواب ذلك كله إلا النفي، والقصور عن اكتناه غوامض الكائنات وأسرارها بوسائلكم العلمية الحاضرة، فعلام التشكيك؟ ويليه أفكار طلاب علومكم من جهة وجود الله، أو وجود

الروح أو وجود العالم الأخروي، إذا كنتم لا تدركون حقائق الأشياء الواقعة بين أيديكم والتي تتناولها أدواتكم العلمية؟

الحق أن ذلك افتئات عظيم على العلم نفسه وعلى الحقيقة معًا.

إن وجود الله هو أوضح ما في الوجود من حقائق؛ لأنه المقوم لوجود كل شيء، فيجب أن يكون وجوده في إشراقه وجلائه وشموله أبين وأوضح من نور الشمس، التي لا تقوى الأبصار الضعيفة على مواجهتها لشدة إشراقها وشمول ظهورها، ولو كان نور الشمس في الواقع أضعف مما هو أكثر تحديدًا لقويت كل عين على مواجهة قرصها، حتى أضعف العيون إبصارًا!

وكذلك وجود الله الذي هو وجود معنوي معقول، وإن كان من جهة أخرى وجودًا فعليًا مؤثرًا، ربما لا تدركه لشدة ظهوره المعنوي وإطلاقه، بعض البصائر الضعيفة أو العقول التي شغلتها الكثرة عن الوحدة، وحجبتها المظاهر عن إدراك الحقائق.

ولو كان ظهور الله أقل تجليًا وإطلاقًا مما هو لرأته العقول القوية والضعيفة على السواء، أو لو كان وجود الله في إطلاقه وعلياء مجده وجودًا محسًا متحيزًا محدودًا، ينظر له بالعين ويشار إليه بالبنان، لأدرك الماديون والطبيعيون حينئذ أن لهم إلهًا عظيمًا وربًا بارًا رحيمًا.

ولكن ماذا نصنع ووجود الله أشد ظهورًا وإطلاقًا مما يقدرون، وهذا سبب خفائه عليهم، والماديون وبعض الطبيعيين لا يريدون أن يفهموا للوجود إلا علة ملموسة محسة محدودة، وذلك هو المستحيل كما لا يخفى، ولذا حصروا العلة –مع عظمها– تحت اسم أجوف ليس له مسمى حقيقي، هو الطبيعة. وما ذلك إلا لأن الطبيعة هي موضوع مباحثهم الحسية وتجاربهم المادية.

بيد أن الفطرة السليمة والعقل الراجع يشعران ويعقلان أيضًا أن الوجود الإلهي كنور إدراكي غامر يشمل سائر ما في الوجود من ظواهر وعلائق وأسباب خفية.

وهل نحن في الحقيقة والواقع يا ترى نبصر ونلمس كل ما هو موجود ضمن دائرة الوجود على إطلاقه، أو أن حواسنا لا تقع إلا على القليل من ظواهره، وأن الأكثر من حقائقه هو مما لا تقع عليه الحواس؟

وبعبارة أخرى: هل من الحق في شيء أن كل ما لا نبصره بأعيننا ولا نلمسه بأيدينا، ولا تقع عليه في الجملة حواسنا لا يعد وجوده وجودًا حقيقيًا، كما يزعم الماديون والملحدون؟ الأمر الذي لو صح –وهو ما لا يعقل– لأنكرنا معه وجود كل شيء قاطبة، الحياة والفكر والقوة والطاقة والذرة وأكثر العناصر؛ لأن تلك الحقائق بل وغيرها من بقية الحقائق الوجودية إنما هي مما لا تتناوله أية خبرة حسية، ولا تقع عليه الحواس بأية حال، وحتى الأشياء المرئية المحسة نفسها والتي تظهر لحواسنا بشيئيتها

وواقعيتها المجسمة، ليست في حقيقتها كما تبدو لحواسنا؛ لأنها ترجع في عليتها وفي مسبباتها إلى عوامل خفية لا ترى ولا تحس، وإنما ندرك وجود تلك الحقائق الخفية (إدراكًا عقليًا) بآثارها المنظورة ومظاهرها البادية لحواسنا، بحيث ترانا مرغمين على التسليم بوجودها، وإن سترتها الظواهر عن حواسنا بشيئيتها.

وإذا كان الواقع في إدراكنا لحقائق الكائنات وأسبابها الخفية هكذا، أي أننا لا ندرك وجودها إلا بمجرد الفكر والشعور، أو بموجبات المنطق العقلي ومسلماته الضرورية فقط، دون أن نحسها أو نلمسها، فما بالك بوجود الله وهو أدق الموجودات معنوية، وأكثرها روحية وأعمقها خفائية على الإحساس والحواس من سائر الحقائق الوجودية، وهو الموجود الأعظم الذي لا يمكن أن ندرك وجوده إلا على الطريقة الشعورية التي ندرك بها ذواتنا المعنوية، وبغير دخل للحواس أو للأحاسيس، إلا أن تكون مؤكدة ودالة على صوابية، ما أدركنا من مثل ذلك المدرك الذاتي البحث؟ ولولا وجود مظاهر قدرته ووضوح النشاط الصادر عن بقية صفاته ما أدرك وجوده العقل نفسه.

وأكثر من ذلك أن وجود الله –وهو الوجود الأزلي المطلق– هو سبب وجود ذواتنا وكل ما فيها من كفايات للشعور والإدراك، بل وكل ما يبدو خلال وحدات الكائنات من حقائق وقوى خفائية، كالحياة والوعي والإرادة والقوة إلخ، وهذا نفسه سبب عدم ظهور وجوده ظهورًا محسًا بحاسة ما، أو الإشارة إليه في جهة بعينها.

ولو فرض حدوث ذلك –وهو المستحيل– لم يكُ ذلك المحس هو الإله نفسه، وإنما يكون كائنًا آخر من بعض كائنات الطبيعية المحدودة المحسة، ولا سيما أن من شرائط الإله الحق أنه العلة المطلقة، والسبب الأول الذي هو باطن كل باطن، وهو مع ذلك الموجود الذي يتقوم بوجوده، وجود كل ظاهر وكل محس، وهو فوق هذا وذاك الكائن المنزه الذي لا يحد وجوده ولا تتحيز كينونته.

ولو لم يكن وجود الله من الإطلاق والاستبطان هكذا، لرآه الماديون كما يرون الأشياء الكونية المجسمة التي ألفها إدراكهم الحسي، وعلى الأسلوب الذي ينحصر فيه علمهم، ولا تعدوه فلسفتهم، وهو أسلوب الخبرة الحسية والتجارب المحسة فقط، وبذا يكون الإله المحدود المجسم المحس عندهم إلهًا صالحًا يقع تحت تجاربهم العلمية والحسية، فيؤمنون به. ومعنى هذا أن القوم لا يؤمنون بشيء من الخبرة الذاتية الباطنية مطلقًا. فكيف تريدهم أنت أو تحملهم على أن يؤمنوا بإله روحي خفي غير منظور؟!

ولو كان وجود الله يرى فيعلم ويعرف على طريقتهم –أعني منظورًا ملموسًا محسًا– لآمن به الملحدون[٤] قبل الماديين والطبيعيين، وانتهى الإشكال، بيد أن ذلك الإيمان لا يكون إلا كما يكون إيمان الراصد بوجود النجم الذي يرقبه بمنظاره.

---

(٤) الملحدون أقسام: منهم الشُكاك شكًا مطلقًا، ومنهم اللاأدريون، ومنهم الجاحدون بتاتًا، والزنادقة أيضًا فرع من الفروع الإلحادية، وكانوا يسمون قديما بالدهريين.

وكيف يا ترى يمكن أن نجسد الإله الذي لا تدركه الأبصار، حتى يؤمن الماديون والملحدون، ومن في حكمهم؟

وهو كائن ذاتي روحي مطلق ووجوده لا يأتلف مع قانون الحواس الخمس، الذي يقيدون به عقولهم ومداركهم المحصورة في الحس وفي الحواس والمحسات[٥]، وهم من جراء ذلك لا يؤمنون بوجود ذواتهم التي بين جنوبهم، والتي هي أقرب الأشياء إليهم، فضلًا عن أن يؤمنوا بإله هو فوق ذواتهم وفوق عقولهم وحواسهم، وفوق الكائنات الطبيعية بأسرها.

ولو أنصف أولئك العلماء والفلاسفة الحسيون وأوسعوا من آفاق مداركهم، لأدركوا وعلموا أن لهم كبقية الناس مشاعر ووجدانات وعواطف كما لهم إحساسات، ولعلموا أيضًا أنه يستقر في قرارة نفوسهم عقل باطني هائل، يسيطر على عقولهم الواعية، وله تصرفاته وانعطافاته الخاصة التي تطغى في غالب الظروف على قواعد فلسفتهم الحسية، فتكتسحها وتخضع أسلوبهم العلمي المادي لأوامرها هي ولأساليبها الخفائية.

أقول: لو علموا كل هذا لعلموا أن في الوجود أسرارًا ومدارك تعلو وتسمو عن الخضوع لحواسهم ولأسلوبهم العلمي، وقانون الحواس الذي هو

---

(٥) وقد بينا الفرق الواضح بين ما هو ذاتي (سبجكتيف) وما هو موضوعي (أوبجكتيف)، ولا بأس أن نلمع إلى ذلك هنا للفائدة فنقول:

البحث الذاتي هو البحث الباطني الذي يختص بذات الباحث وأفكاره وكفاياته للمعرفة، وكفايات المعرفة هي كفاية الحس وكفاية الشعور أو البصيرة. وأما البحث الموضوعي فيختص بما هو خارج الذات من أشياء محسة واقعة في عالم الموضوع.

وسيلتهم الوحيدة في كل خبرة وكل معرفة. وأنى لهم أن يعلموا ذلك والقوم لا يدركون إلا بحواسهم وحواسهم فقط؟

وإن أردت أن تتحقق ذلك بنفسك فسل أحدهم مثلًا عن فكره الذي يفكر به أو عن حياته التي بها يحيا وبها يعيش: هل تؤمن بوجود الفكر ككائن عقلي معنوي؟ وهل تؤمن بوجود حياة مستقلة عن جميع خصائص المادة؟

وإني لأؤكد لك جد التأكيد أنك لو سألت أحدهم مثل هذا السؤال لأجابك على الفور:

دعني ألمس الحياة والفكر، أو أنظر إليهما ولو تحت عدسة الميكروسكوب، وعند ذلك فقط أؤمن بوجود الفكر ووجود الحياة كحقائق موجودة!

ولقال لك أيضًا:أما رأيي أنا ورأي كل من هم على شاكلتي من العلماء والفلاسفة الحسيين، فهو أن الحياة مجرد تفاعل كيميائي في كمية محدودة من فلذ الأرض وأملاحها وعناصرها، لا أقل ولا أكثر! (وما الفكر إلا مجرد إفراز للمخ، يفرزه كما تفرز الكبد الصفراء، وكما تفرز الكليتان البول) وهذا بالضبط قول لأحد زعمائهم.

وطبعًا هذه المغالطة، وإن كان للقوم عذرهم فيها بحكم ما قدمناه لك من تقيدهم في علومهم، بل وفي سائر مداركهم العلمية والفلسفية

بقانون الحواس الخمس المتقدم ذكره، والذي يحصر الحقيقة في المنظور دون المعقول.

فإذا كان هذا شأن القوم ورأيهم في ذواتهم الإدراكية وفي حياتهم، وهي الأقرب إليهم من شرايينهم وخلايا أمخاخهم، فكيف يتأتى لك أن تحملهم على إدراك وجود إله روحي مطلق، وجوده أعظم معنوية وأسمى روحية من وجود الحياة ومن وجود الفكر، بل ومن وجود الروح، وهو أكثر تجريدًا وإطلاقًا منها جميعًا، وإن كان وجوده لدى الفكر ولدى البصيرة أوضح من كل وجود سواه؟

وبعد فهل يعلم الماديون والملحدون أن دفعهم لوجود شيء والتعنت في إنكاره إنما هو دليل ضمني على الاعتراف بوجوده؟ وإلا فأي شيء ذلك الذي يدفعون؟ وفي أي شيء يعارضون؟ هل يعارضون عدمًا مثلًا، مع أن غير الموجود عقلًا لا تصح المناقشة في وجوده؟ وهل يدفع الإنسان إلا موجودًا أو يشك إلا في وجود موجود؟

وغاية الأمر أنه لا يملك الوسيلة لعرفان وجوده، وأخيرًا: هل يمكن أن يبحث الباحث عن شيء أو في شيء إلا إذا كان وجوده مرجحًا على عدمه[٦]؟

وهل درى الماديون والملحدون أن إنكارهم لوجود الله وجدلهم في ذلك الوجود بمثل تلك الحرارة هو نفسه إيمان، وإن كان إيمانًا سلبيًا ومن نوع آخر؟، وبعبارة أخرى: إيمان بالإلحاد نفسه، وبذا يكون الإلحاد عقيدة كسائر العقائد التي تجعل المؤمن بها يستميت في الدفاع عن معتقده.

وغاية الأمر أن الملحدين بدلوا في أنفسهم عقيدة مكان عقيدة، وأعني الاعتقاد بالناحية السلبية في الموضوع بدلًا من الاعتقاد بالناحية

(٦) وأنا شخصيًا صادفني مادي ملحد، وسألني في جمهور من الناس: هل أعتقد يقينًا وجود إله؟ فقلت له على الفور: كلا، فتعجب وأعاد السؤال بكيف وأجبته بهكذا، فقال: أنا ملحد، فأجبني. فقلت له: قد أجبتك، قال: وضح لي، فقلت له: أولًا إذا لم يكن في قلبك أنت إله، فكيف تطلب مني إيجاده في ذلك القلب؟

وثانيًا: إني أراك قد غضبت حينما أجبتك بالإنكار، وهذا يجعلني أكسب نصف القضية مقدمًا، وإلا فلماذا غضبت حينما أنكرت أنا وأجبتك بسلب الوجود؟ ألا يدل غضبك على أن عقلك يؤمن ببعض الإيجاب بمقدار النصف على الأقل؟ وهل يبحث الإنسان عن معدوم؟ كلا، وكان الدليل في دهشتك حين أجبتك بالسلب دون الإيجاب.

وأما نصف القضية الآخر فهو في قولي من أين أجيئك أنا بإله ليس في قلبك أنت؟ وتكون النتيجة أن الإله موجود، تنكر أنت نصف وجوده؛ لأن نصفه الآخر لم يكن في قلبك استعداد لاعتقاده. وقدمنا أن الإنسان قد يبصر الأشياء بنور الشمس فيدرك وجود جميع ما أبصر، وينسى وجود الشمس نفسها! وقلنا أيضًا في أمثولة دللنا عليها بحمار جحا: إن الإنسان قد يدرك جميع ما حوله فيعده ويذكره عدا نفسه التي أدركت وعدت!

الإيجابية، وما ذلك إلا لكون الإنسان لا يمكنه أن يحيا إلا بعقيدة ما على أي نوع وبأي لون كانت. ولا يمكن أيضًا أن يجمع في قلبه بين عقيدتين عقيدة سالبة وأخرى موجبة لأنهما ضدان! وهل يدري أولئك الناس أنهم بعلمهم هذا يدللون على أن ما في ذواتهم من نزوع للإيمان قد تحول سلبًا إلى إيمان بالإنكار نفسه بحسب أهوائهم؟ ولذا فهم يدافعون عنه كما يدافع المؤمن بالله عن إيمانه الإيجابي الصحيح تمامًا.

وإلا فما ذلك الشيء الذي يحاول المؤمن إثبات وجوده، ويحاول الملحد نفيه، ويحاول الشاك التشكيك في وجوده، إلا أن يكون ذلك حقيقة موجودة وجودًا فعليًا، وفقط يكون لكل واحد من أولئك وجهة نظر نسبية فيه أو زاوية ينظر إليه منها، ويكون الواقع أن كل واحد من الجماعة قد اعترف ضمنًا بوجود تلك الحقيقة، ولكن على الحالة التي تتفق مع وجهة نظره التي يخالف بها نظر صاحبه.

من كتاب (الوجود، مباحث في الله والطبيعة والإنسان).

الفهرس